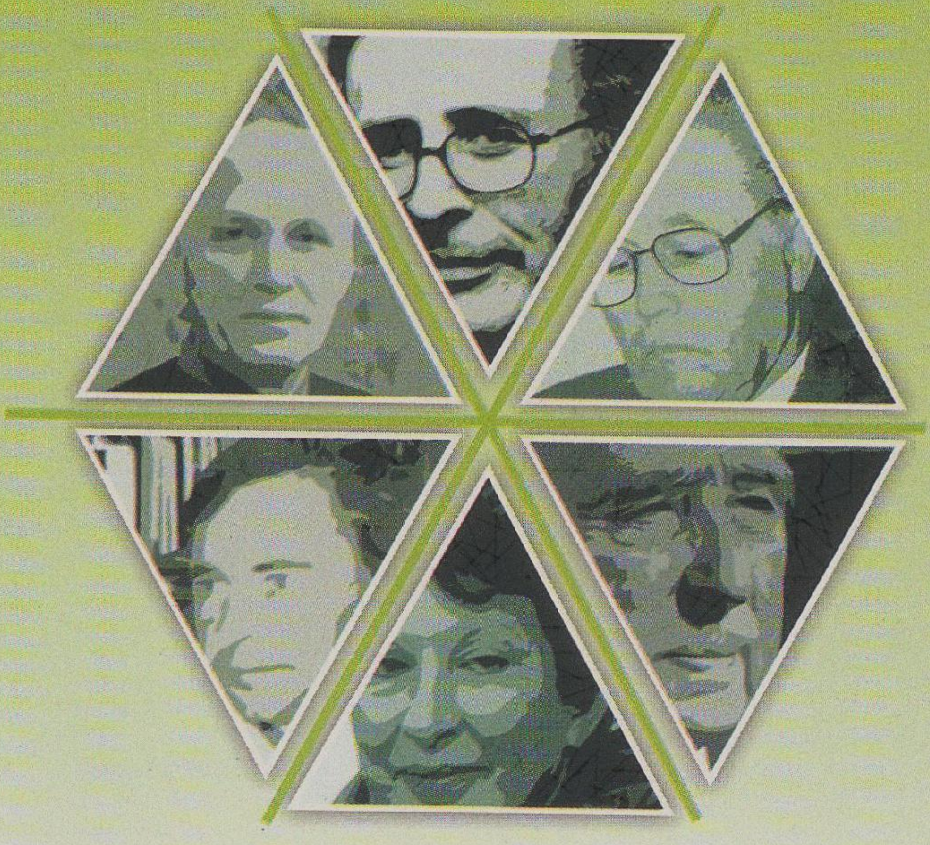
دفاتر وجهة نظر (20)

المدخل لعلم الاجتماع المغربي



نورالدين الزاهي

دفاتر
وجهة نظر
20

المدخل لعلم الاجتماع المغربي

نورالدين الزاهي

الفهرست

دفاتر
وجهة نظر

المراسلات:
ص.ب: 2111 حي الرياض - الرباط
الهاتف: 0537561225
0663707106
e-mail:
abdellatifhousni20@yahoo.fr

- مسارات المغرب السوسيولوجي
نور الدين الزاهي
- التصميم والغلاف: طارق جبريل
- الإيداع القانوني: 2011 MO 1574
- السحب مطبعة النجاح الجديدة
- الناشر: دفاتر وجهة نظر
- طبع من هذا الكتاب: 8000 نسخة

- الطبعة الأولى: 2011

تقديم

يتطلب منا مبنى هذا المؤلف ومحتوياته بعض الإضاءات التوضيحية .

- **أولاهما** ،كوننا اخترنا الحديث عن مسارات ، وليس عن مسار واحد وأحادي لسوسيولوجيا المغرب . علة ذلك تكمن في كون حركات تفكير المغرب السوسيولوجي سلكت طرقا منهجية وبحثية مختلفة ، مثلما ارتكزت على مرجعيات نظرية متمايزة ، واستهدفت غايات نظرية وعملية متعارضة ، في الجواب النظري والميداني على السؤال : لم السوسيولوجيا؟

مغرب المسار السوسيولوجي الكولونيالي الفرنسي خصوصا ، والمسار الوطني ، والأنكلوساكسوني ، ليس واحدا . لكل مسار اختياراته المنهجية والإبستيمولوجية وغاياته العملية ، بل يمكن القول ، إنه داخل كل مسار تحضر نفس الاختلافات المرجعية والمفاهيمية والغائية .

ثانيها ،كوننا فضلنا تناول مسارات المغرب السوسيولوجي ، بكل أشكال العنف النظري والرمزي والسياسي ، في بعض الأحيان ، التي لازمت أشكال تقاطعاتها ، عوض رصد وتشخيص وتقويم الحصيلة .

رصد الحصيلة السوسيولوجية لمغرب اليوم ليست أمرا سهل الإنجاز بالنسبة لمؤسسات علمية ، فم القول حينما يتعلق الأمر بباحث مفرد؟؟ يتطلب رصد الحصيلة السوسيولوجية المتوازنة ، كما وكيفا ، شروطا مؤسساتية علمية ، تمكن من الحصول على المعطيات الكمية المنظمة المتعلقة بالبحث العلمي السوسيولوجي ، وموارد بشرية متخصصة ومؤهلة لقراءة الإنتاج السوسيولوجي وتقييم هويته وحصيلته . بالمغرب وإلى حدود الآن لا يتوفر الحقل الجامعي المغربي

«على سجل مركزي يحصي كل المعلومات المطلوبة عن الرسائل والأطروحات الجامعية والمناقشة في مختلف مؤسسات التعليم العالي بالبلاد . وفي مقابل هذا النقص الواضح ، تتوفر على مجموعة من مصادر المعلومات المفيدة ، والتي تظل مع ذلك ناقصة من نواحي متعددة»(1) . لهذا السبب لا مرتكز في هذا الباب سوى فهارس الجامعات المحلية بكل بياضاتها واجتهادات المؤسسات العلمية الخاصة وكذا بعض المهتمين بالموضوع(2) . من جهتنا اعتمدنا على قراءاتنا الخاصة ، وانخراطنا في مجال البحث السوسيولوجي لأزيد من عشرين سنة . وسندنا ذلك بالإطلاع على ما تم إصداره من حصيلات سوسيولوجية كيفية ، وبيبلوغرافيات نقدية .

دشن الراحل عبد الكبير الخطيبي تقليد «الحصيلة السوسيولوجية»(3) وقيده بقواعد ذاتية وموضوعية صارمة . لقد أخضع الأعمال المحصية الى معايير فارقة : أولها انتقاء الأعمال التي يعتبرها مؤلفوها سوسيولوجية منهجا وغاية . وثانيها اعتماد الأعمال التي تتمتع بحد أدنى من القواعد العلمية . وثالثها التمييز بين السوسيولوجيا وباقي تخصصات العلوم الاجتماعية الأخرى . قواعد كانت نتيجتها على المستوى الكمي ، حصر الأعمال السوسيولوجية في سبعة وتسعين عنوانا ، وعلى المستوى الكيفي الحسم في أمر انتماء أسماء وازنة إلى الحقل السوسيولوجي (تم إبعاد كل من دوتي ولوتورنو وميشو بلير وأعمال كل من إرنست غيلنر ودافيد .م . هارت . . .) .

سنوات قليلة بعد إصدار الخطيبي لحصيلته ، سيصدر آندري آدم بيبليوغرافيته النقدية(4) والتي سيسمها بتعريف شاسع للسوسيولوجيا ، سيشكل المبرر المعرفي لرفع الحدود بين السوسيولوجيا وباقي تخصصات العلوم الاجتماعية

من جهة ، ومن أخرى الرجوع إلى ما قبل تاريخها . سوسيولوجيا المغرب حسب أندري آدم هي مجموع الأعمال الفرنسية والإسبانية والإنجليزية والألمانية والأمريكية التي شكل المغرب موضوعا لها . نتيجة لذلك سترصد البيبليوغرافيا مسار السوسيولوجيا المغربية منذ بداياته الإثنوغرافية الأولى ، لتمر عبر مرحلة التخصص أو التأسيس التي دشنها ميلاد البعثة العلمية ، وبعدها الى مرحلة ما بعد استقلال المغرب بسوسيولوجييها المغاربة والفرنسيين .

لقد اعتبر أندري آدم مصطلح الحصيلة استعارة ليس إلا ، لا يمكن تطبيقها حرفيا في المجال المعرفي السوسيولوجي الذي لا يتسم بوحدة التعريف والمنهج والمرجعيات . قد يصلح المصطلح في مجال المال والطب المميزين بالتواضع حول مقاييس كمية واضحة ، لكن في مجال العلوم الإجتماعية تبقى الذاتية حاضرة بثقلها . يتعلق الأمر بالتلميح النقدي لحصيلة الخطيبي وبتعليل لإدخال أسماء ، من مثل إيد مون دوتي وميشو بلير ، في مرحلة التخصص السوسيولوجي . أسماء أبعدها الخطيبي من الحقل بشكل عام .

حصيلتان مهمتان في تاريخ سوسيولوجيا المغرب ، إذا ما قارناهما بأخريات(5) تشكلان بذاتهما محطة في المسارات التي أشرنا إليها سابقا وتحتاجان الآن ، وأخريات ، لمن يرسي حصيلتها ويغذيها بالمعطى والنقد .

لا يتعلق الأمر في هذا المؤلف بحصيلة ، أو ببيبليوغرافيا نقدية ، بل بتعريف وتعميم لهاته المسارات لدى الطلبة الباحثين في هذا المجال . تعميم وتعريف بسيطين ينهلان شرعية ممارستهما سوسيولوجيا من حدث القطائع التي عاشتها مسارات المغرب السوسيولوجي ، والتي كان من نتائجها قطع الصلة بين «أجيال» السوسيولوجيين المغاربة ، من جهة ، ومنع مسارات التراكم السوسيولوجي من

فعل فعلها في المجال السوسيولوجي . انقطاع مؤسساتي أول سيتجسد في إغلاق معهد السوسيولوجيا ، ومن ثم ستقفد البنية التحتية للعلوم الإجتماعية عموما والسوسيولوجيا خصوصا ، أولى أعمدتها التخصصية النظرية والتطبيقية والتأطيرية والتكوينية . إنقطاع لساني ثان سيتجسد في تعريب الدراسات الفلسفية والإنسانية في التعليم الثانوي والجامعي ، وهو ما سيشرخ البنية الفوقية للبحث السوسيولوجي ، ويشطرها قسرا إلى كيانين من الباحثين المحليين ، لكن بلسانين وثقافتين ومرجعيتين مختلفتين ومتباعدتين . انقطاع ثالث سيتم تدشينه بمحاولة حظر مادة وشعبة الفلسفة من الجامعة المغربية ، وهي الشعبة التي تسمح بالعبور بعد سنة الجذع المشترك الأولى ، إلى السوسيولوجيا وعلم النفس . حظر وإن لم ينجح في الجامعات العتيقة ، كجامعة الرباط ومراكش وفاس . . فقد تم تعميمه على الجامعات والكليات المستحدثة .

هاته الإنقطاعات القسرية ، بقدر ما وشمت مسارات المغرب السوسيولوجي والعلمي ، ومعه المغرب السياسي والثقافي ، بقدر ما أطرت ميلاد الجيل الحالي من الباحثين في العلوم الإجتماعية عموما والسوسيولوجيا على وجه الخصوص ، رفعت من درجات صعوبة ولوجه العادي والسهل الى خضم هاته المسارات الممتدة عطاءاتها ورهاناتها العلمية والرمزية والإيديولوجية والسياسية على أكثر من قرن من الزمان .

غايتنا حياكة ونسج خيوط بسيطة ، عبر التعريف بهاته المسارات وتعميمها . ذاك كان قصدنا حينما رحلنا بتلك المسارات إلى عالم الصحافة ، وهو قصدنا الآن ونحن نجمعها ونؤطرها في مؤلف ، نأمل صادقين أن يشكل أداة عمل لباحثينا السوسيويولوجيين الشباب .

تميز الحضور الفرنسي بالمغرب ، إلى جانب العنف العسكري ، بتأسيس البنيات التحتية العلمية لمعرفة البلد المراد استعماره . معرفة لغاته ومؤسساته وقبائله وزواياه وقوانينه وأنماط معتقداته وأعراقه . . . ذلك قصد تلافي تكرار التجربة الدموية بالجزائر ، وإنجاز التغلغل والسيطرة بأقل الخسائر البشرية الممكنة . في هذا السياق عاش المستعمر صراعا داخليا بين فرنسيي الجزائر ، أو ما عرف بمدرسة الجزائر ، والتي كانت تدعو الى استعمار المغرب بأية طريقة وبأي ثمن ، ومدرسة الحزب الكولونيالي المتواجدة بالمتروبول ، والتي ترى في الإخضاع السلمي للبلد الحل الأنجع لتلافي الاصطدام الدموي مع الأهالي . عملت المدرستان معا على توجيه الرحالة والمستكشفين إلى المغرب وذلك قصد ضبط عدد ساكنته وقبائله وخيراته الفلاحية والمعدنية ومؤسساته السياسية والعسكرية . . . وذلك قصد قياس درجات تقبلها أو رفضها للحدث الإستعماري .

1- مرحلة الإستكشاف

لم ينطلق الرحالة الفرنسيون الى المغرب قصد إستكشافه ، دون معرفة مسبقة ، بل لقد اعتمدوا في رسم مدارات رحلاتهم واختيار مخبريهم على ما كانت توفره البعثات التبشيرية المسيحية التي سبقتهم إلى الميدان ، من معطيات ووثائق وصور وموارد بشرية . يقدم جان لوي

مييج في هذا السياق كما هائلا من المعطيات حول عمل البعثات المسيحية بالمغرب ،لدرجة يعتبر معها أن كتابة تاريخ مغرب القرن التاسع عشر تكون مستحيلة إذا ما تجاهلت هذا المصدر الوثائقي(6) . بين 1875م 1894م سيعرف المغرب انغراس شبكة من البعثات على طول وعرض ترابه (بعثة المغرب الجنوبي ، بعثة الإنجيل الموحدة ، بعثة شمال إفريقيا ، البعثة المركزية المغربية ، الجمعية اليهودية : نصف الطريق . . .) بعثات كان لها منشوراتها التي تصدر عبرها تقارير مفصلة عن أنشطتها ودرجات اتساع استقطاباتها . وكذا تقارير وصفية عن حياة المغاربة وتقاليدهم الأسرية وطباعهم وكيفيات لباسهم وطقوسهم في الزواج والأعياد والجنائز . . . تضع أوروبيي المركز في الصورة . لقد تبنت هاته البعثات استراتيجية البدء بالعمل الاجتماعي مجسدا في تقديم الخدمات الطبية والتعليمية وبناء المدارس والمستوصفات وبعدها العبور إلى تلقين تعاليم الإنجيل وكسب صداقات وثقة الأسر والأفراد . وهو ما مكنها من تجميع معطيات عن الحياة العامة والخاصة للمغاربة ، ستكون حسب جان لوي مييج أرضية الرحالة اللاحقين ، بل إن بعض أفراد هاته البعثات سيتحولون إلى مخبرين لهم في أرض المغرب(7) .

تعتبر الرحلات الإستكشافية لحظة أكثر تقدما في التعرف المباشر على المغرب والمغاربة ،سواء من حيث مغامرة أصحابها ومخاطرتهم بولوج المناطق القروية البعيدة عن النفوذ المخزني ، أو من حيث نوعية المنتوج المعرفي الذي قدمته لأوروبيي المركز وللمؤسة العسكرية والسياسية الإستعمارية . لم يكن الرحالة المستكشفون علماء سوسيولوجيا أو

أنثروبولوجيا ، مثلما لم تكن لهم خبرة أكاديمية بالمناهج الكمية والكيفية المؤهلة لتحصيل المعلومة بشكل دقيق . مقابل ذلك ظلت نقطة قوتهم كامنة في إدراكهم للغات البلد ومعتقده الديني .لقد كان «أوكست موليبيراس» صاحب المؤلف الضخم ، «المغرب المجهول»[8] ملما ب . ومتقنا للغة الأمازيغية ، والتي بفضلها تمكن من تحصيل معطيات كتابه عن الريف وجبالة . لم يزر موليبيراس المغرب ولم يعرفه ، بل لقد سخر مخبرا جزائريا أمازيغيا ، على معرفة بالمغرب وسكانه ، للقيام برحلات متكررة إلى منطقة جبالة والريف وفي كل مرة كان يدون ويسجل روايات مخبره الجزائري الهداوي (كان مخبر موليبيراس من مريدي الطريقة الهداوية بالجزائر) وينظمها ويفك شيفراتها اللسانية . وعلى الرغم من تداخل المعطى الواقعي بالمتخيل والسرد بالوصف والتخمين ، في مؤلف المغرب المجهول فقد تمكن من منح فرنسيي الجزائر وفرنسا صورة شاملة عن المجتمع المغربي بإمكانها تغذية الفضول وإشباع الخيال وكسب رضا الرأي العام الفرنسي (حسب أ . موليبيراس ساكنة مغرب نهاية القرن التاسع عشر ناهزت السبعين مليون نسمة ،أما كميات الثروات المعدنية بشمال المغرب فلا تعد أو تحصى من ذهب ونحاس وحديد . . . والساكنة بسيطة في تفكيرها وبدائية في نمط عيشها . .) .

إذا ما كانت معرفة وثقافة أ .موليبيراس العامة ، وإتقانه الأمازيغية قد مكناه من تغطية منطقة الريف وجبالة فإن معرفة إدمون دوتي المكتسبة داخل مدرسة الجزائر ، وإتقانه للغة العربية ، سيمكنانه من إنجاز رحلتين داخل التراب المغربي . ستحمل الرحلة الأولى اسم «مراكش» والثانية

«في رحاب القبيلة»[9] . سينطلق مسار الرحلة الأولى من البيضاء ليعبر أزمور وبعدها دكالة فالرحامنة ليتم ختمها في مراكش . أما الثانية فستكون مدينة مركش منطلقها ليتم العبور عبر قبائل مصمودة والأطلس الكبير فقبيلة حاحة ومنها العودة عبر الرباط فمكناس ومولاي ادريس زرهون . . . رحلتان ممتلئتان حتى العظم بمعطيات وفيرة عن الأرض والناس والمعتقدات ومعززتان بكم هائل من الصور الفوتوغرافية .

لقد سمحت هاتان الرحلتان لإدمون دوتي بأن ينجز فيما بعد دراسات أكثر عمقا وتخصصا عن القبائل والزوايا والمعتقدات السحرية والدينية ، ستجعل منه أحد أعمدة الإثنوغرافيا الفرنسية الكولونيالية .

لم يشغل الرحالة الفرنسيون ورقة امتلاكهم واتقانهم للغات البلد لتسهيل تنقلاتهم وتيسير شروطها ، خصوصا وأن مغرب نهاية القرن التاسع عشر لم يكن مفتوحا أمام الأجنبي ، وبنياته التحتية لم تكن تيسر التنقل الآمن بين مدنه وقراه ، بل سيستثمرون كذلك إرث البعثات المسيحية واليهودية لاختيار السبيل الأكثر نجاحا للولوج إلى العقليات والعادات والمناطق الأكثر استعصاء على الغريب والبراني . سيختار الرحالة شارل دوفوكو ، رجل الدين المسيحي ، لباس ثوب اليهودي للتخفي والتمكن من الإحتكاك المباشر بجغرافيا المغرب العميق والبعيد عن سلطان المخزن المركزي[10] .يجمع الكل ، من مؤرخين وسوسيوليجيين ، مغاربة وأجانب ، على أن رحلة ش .دوفوكو ، أهم الرحلات التي تمت في المغرب ، سواء من حيث جانبها النظري أو المنهجي أو الثوثيقي .إنها مرجع للجغرافيين بحكم كم الخرائط التي

أنجزها دوفوكو ولو بأدوات قياس بسيطة وهي مرجع إثنوغرافي مميز بتفرده في تسجيل وتدوين حياة اليهود المغاربة . وهي في الآن نفسه درس ورسالة موجهة لكل رجال الدين المسيحيين : «لا يخاف المغربي الآخر لأنه مسيحي ، بل لكونه غازيا» . تلك هي الجملة التي يضعها دوفوكو على وجه الصفحة الاولى من رحلته . وللأمر أكثر من دلالة ووزن إذا ما اعتبرنا الفترة والشروط التي عاشها مغرب نهاية القرن التاسع عشر .

لقد تمكن الرحالة الفرنسيون ، وإن بتفاوت ، أن يمدوا المؤسسات السياسية والعسكرية الفرنسية بمعطيات غزيرة عن المغرب وسكنته ونظمه ،لكن وإلى جانب استطاع بعضهم أن يضع يده على مفارقة ذات أهمية ظلت ولا زالت تخترق عمق البنيات الثقافية المغربية . مفارقة غريبة لازالت أطرافها تتعايش بشكل غريب : نظام اقتصادي فقير مبني على العلاقات الخارجية والتنظيم الذاتي للقبائل ومقابل ذلك علاقات اجتماعية مبنية على البذخ والإسراف سواء في الصراعات والخصومات والجنائز أو الأفراح والهدايا . . . مفارقة الفقر وحضور العزة والفخر والرضا عن العيش في ظل اقتصاد الكفاف ، التي وضع عليها اليد الرحالة الفرنسيون ، إحدى الفرضيات المهمة لفهم الكيفيات والآليات الثقافية التي يدبر بها المغاربة نمط العيش في اقتصاد الكفاف[11] .

ظل المغرب منذ 1880م وإلى حدود بداية القرن العشرين موضوع صراع بين فرنسيي المتروبول وفرنسيي الجزائر . صراع يعكس تضارب المصالح بين الجماعات السياسية والبيروقراطية والإقتصادية المتنافسة ، ودرجات تعارضها في الجواب عن السؤال : أية سياسة يجب اتباعها في

المغرب؟ في خضم تلك الصراعات لم يكن من المدهش أن يكتشف المرء ان مسألة مراقبة البحث في مجال العلوم الاجتماعية ظلت قضية جوهرية بالنسبة لمختلف هاته الجماعات . إلى حدود نهاية القرن التاسع عشر ستنتصر مدرسة الجزائر في بسط سيادتها على عملية الجرد الميداني الشامل للمغرب . (اوغستان ، بيرنار ، وليام مارسي ، ادمون دوتي ، اوغست موليبيراس . .) بحكم توفرها على العدد الأكبر من الباحثين ذوي الإختصاص ، والمعترف بهم علميا .

2- تأسيس البعثة العلمية وميلاد السوسيولوجيا الكولونيالية

لم تدم سيادة مدرسة الجزائر على حقل البحث في المغرب بعد نهاية القرن التاسع عشر . فالتعارض أصبح جليا بين التوجهات الجديدة للحزب الكولونيالي (استعمار بأسس بحثية وعلمية) وطموحات المدرسة الجزائرية . وسيكون ألفريد لوشاتوليي ، مؤسس البعثة العلمية ، الرجل الذي سيدرك قواعد اللعبة الجديدة ، وسيعجل بسقطة مدرسة الجزائر .لقد كان لوشاتوليي صاحب تكوين نظري متين ، بدأ مسيرته كضابط في الشؤون الأهلية بالجزائر سن 1876م لمدة عشر سنوات ، وبعدها سيتولى منصب رئيس مكتب . كتب في هاته الفترة سلسلة من الدراسات عن الإسلام والزوايا . . ومع مطلع القرن العشرين سيشغل منصب الأستاذ بالكوليج دو فرانس وسيؤسس كرسيا للسوسيولوجيا سيحمل إسم «السوسيولوجيا الإفريقية والإسلامية» وإلى جانبه تجاوز عراقيل التمويل سيتغير الإسم ليصبح «السوسيولوجيا والسياسة

الإسلامية» . في أكتوبر من سنة 1903م سيتم تأسيس نواة للبحث السوسيولوجي بطنجة ستحمل إسم «البعثة العلمية» . لم يكن ممكنا لألفريد لوشاتوليي المؤسس أن يدير امور البعثة بنفسه وهو المنشغل بفتح فرنسيي المركز على تصوراته ومشاريعه وكان أن أشار عليه غاستون ماسبيرو بالإعتماد على باحث شاب ولامع بالمعهد الأركيولوجي بمصر وهو جورج سالمون . سيكلف لو شاتوليي جورج سالمون بالتوجه إلى المغرب والعمل على تهييء المجلد الأول من «الأرشيفات المغربية» في حين سيعمل هو على ترسيخ الإعتراف .

ستصدرالبعثة المجلد الأول سنة 1904م ، ومع سنة 1906م سيصدر إلى جانب ذلك العدد الأول من مجلة «العالم الإسلامي» . سنة 1907م سيسند لوشاتوليي إدارة البعثة للباحث الملم بمعارف كثيرة تخص المغرب ، ميشو بلير . وفي ظل إدارة هذا الأخير سيتم إرساء تصور أكثر شمولية دقة لعمل ومهام البعثة . مع مطلع سنة 1914م ، وفي إطار الإتفاق مع حكومة الحماية ، وإدارة الشؤون الأهلية ومصلحة الإستعلامات ، سيتم إصدار منشور جديد سيحمل إسم «مدن وقبائل المغرب»[(12)] . لقد حدد ميشو بلير مهمة البعثة في عنصرين اثنين :

– البحث عن الوثائق التي تسمح بمعرفة ودراسة المغرب في الميدان .

– العمل على إعادة تنظيمها ومنحها الحياة ليس فقط عبر الإعتماد على الكتب والمخطوطات ، ولكن عبر المعلومات والروايات الشفوية ، والتقاليد الأسرية والقبلية .

هاته المهمة هي التي سخر لها مجلدات «مدن وقبائل المغرب» والتي جعلت من اختصاصها تجميع المعطيات المتنوعة عن المدن والقبائل والزوايا والبحث في تحالفاتها وصراعاتها وتاريخها وأصولها ، وتتبع المؤسسات السياسية والدينية عبر تاريخها[13] . لقد أصدرت البعثة العلمية وإلى حدود 1919م 24 جزءا من «الأرشيفات المغربية» و6 مجلدات من «مدن وقبائل المغرب» غطت بالبحث كلا من مدينة الرباط بأحوازها ومدينة البيضاء إلى حدود تراب وقبائل الشاوية .

3- المعهد العالي للدراسات المغربية

يعتبر عبد الكبير الخطيبي بأن تطور السوسيولوجيا لم يكن وليد ظاهرة التوسع الإمبريالي فقط ، بل إنه لم يكن ليحدث لولا تلاقي وتقاطع أفكار ليوطي الكبرى وسياسة علمية سنها ألفريد لوشاتوليي ، ونظام دبره جورج هاردي[14] . فعلا لقد شكلت أفكار ليوطي ، مهندس الحماية ، وسياسته الإسلامية بالمغرب سندا وتوجيها لمسار البحث السوسيولوجي بالمغرب إلى أعلى مستويات عمقة ، مثلما ستشكل البعثة العلمية المؤسسة من طرف لو شاتوليي البروفيسور بالكوليج دو فرانس ، المحطة المؤسساتية الأولى التي ستولد في كنفها السوسيولوجيا فعليا بالمغرب . وستكون لمسة جورج هاردي وهو على رأس إدارة التعليم بالمغرب منذ 1920م ، العامل الباعث على إنعراج جديد في مسارات تشكل المغرب كموضوع للبحث السوسيولوجي .

مع منتهى سنة1919م سيصبح استمرار البعثة العلمية قاب قوسين

أو أدنى . فالتمويل والدعم سيتوقفان ، وستضطرالبعثة نتيجة لذلك لإغلاق أبوابها . ستتحول البعثة من مؤسسة إلى مسلك السوسيولوجيا على غرار مسالك التاريخ والجغرافيا . . . . سيعلل الجنرال موريال هذا التحول بكونه سيسمح بإرساء نظام جديد يبعد كل لبس أوغموض ممكن ، مثلما سيجعل من من البعثة نواة شبيهة ومتساوية مع الأنوية البحثية الأخرى[15] . لمسة هاردي النوعية تكمن في أجرأة توجيهات وتعليلات الجنرال موريال . ستتم عملية مركزة لكل المسالك ودمجها في إطار مؤسساتي جديدد سيحمل إسم «المعهد العالي للدراسات المغربية» . مركزة يعتبرها الخطيبي دفعة قوية بكل البحوث نحو عمق أكبر وامتداد زمني أطول .

سنة 1920م سيتأسس المعهد العالي للدراسات المغربية بمدينة الرباط . بقرار وزاري مؤرخ ب11 فبراير 1920م . وستتحدد رسميا مهماته في :

- تشجيع الأبحاث العلمية المتعلقة بالمغرب .
- إنتظام البحث في مسالك وتخصصات واضحة ، مع تنسيق النتائج ومركزتها .
- ممارسة التكوين وذلك عبر إعطاء دروس عمومية تأهيلية لضباط الإستعلامات وللمراقبين المدنيين . مهمة التكوين هاته ستكبر حينما سيعهد للمعهد بتهييء امتحانات ولوج المدرسة العليا للغة العربية واللهجات الأمازيغية . سيصدر المعهد نشرته التي تحمل اسم «إسبيريس» إضافة إلى «الأرشيفات البربرية» وأعمال علمية أخرى ، ومع كل نهاية

السنة ينظم المعهد مؤتمرا للأعمال العلمية المتصلة بالمغرب ويصدر أعماله في نشرته[16] الخارجية .

لقد تشكل المعهد العالي للدراسات المغربية من مسالك وتخصصات عديدة ، كان المسلك السابع ضمنها هو المختص في الإثنولوجيا والسوسيولوجيا المغربية ، ومن حسن حظ المسلك أن كان روبير مونتاني يدير كتابته العامة .

سيمنح روبيرمونتاني نفسا جديدا للمعهد وللبحث السوسيولوجي ، بل سيطعم البنية المؤسساتية العلمية عبر تأسيس معهد جديد باختصاص جديد ، سنة 1936م . سيحمل إسم «المعهد العالي للدراسات الإدارية الإسلامية» . إلى جانب وظيفته التكوينية المستهدفة للإداريين والموظفين العاملين بالمستعمرات ، ظلت السوسيولوجيا والإثنولوجيا تحظيان داخله بأهمية قصوى . هذا إلى جانب مصلحة التوثيق التي ضمت كنزا من الوثائق والدراسات الغنية ، والتي حملتها معها الإدارة الفرنسية بعد رحيلها ولم تفرج عن بعضها للباحثين سوى بعد مرور خمسين سنة ، بينما لازال البعض الآخر ينتظر إتمام المئة سنة .سنة 1937م سيصدر المعهد نشرته الخاصة والتي عرفت تحت إسم «إفريقيا وآسيا» .

يعتبر الخطيبي أن السياسة العلمية الفرنسية انبنت من 1912 إلى 1925م على تعليل مفاده ، أنه بعد التهدئة العسكرية يجب بدء فعل البناء ، والذي لا يمكن ان يتم دون غزو للقلوب والعقول . يتعلق الأمر بضرورة إرساء تفاهم قوي وتعايش سلمي قائم على إدارة مطابقة ومعرفة دقيقة بالعادات والتقاليد[17] .

بعد سنة 1925م ستتغير ملامح السياسة الكولونيالية ، سواء تجاه الساكنة أوموضوعات البحث العلمي . سيغادر ليوطي المغرب وستوقف سياسته الإسلامية عن إغراء المؤسسات السياسية والعسكرية خصوصا وسيرتفع على إثر ذلك الغموض الذي ظل يلف الظاهرة الإستعمارية . سينجلي الوجه العسكري والعرقي في إدارة شؤون البلد ، مثلما سيتم التوجه نحو تأسيس مؤسسات علمية تجيب على المتطلبات والحاجيات الجديدة . فالمغرب لم يعد قرية كبرى مزينة بالمدن السلطانية والعتيقة ، وظواهره الإجتماعية والقانونية والنفسية والسياسية بدأت تتغير . فبعد إنشاء معهد الدراسات القانونية بالرباط سنة 1928م سيتم إنشاء المعهد العالي للدراسات العلمية سنة 1940م والذي فتح أبوابه فعليا سنة 1946م . مع مبتدئ الخمسينات سيتم إحداث المدرسة الإدارية المغربية .

كلية الآداب والعلوم الإنسانية المغربية التي جاءت بطلب موجه من الملك محمد الخامس للمؤرخ الفرنسي آندري جوليان ، سنة 1959م ، لن تكون غير توليف وجمع بين المعاهد المذكورة سابقا (معهد الدراسات القانونية والمعهد العالي للدراسات العلمية والمعهد العالي للدراسات المغربية في العلوم الإجتماعية والانسانية الذي كان يضم بين جدرانه شعبة للسوسيولوجيا .

4- معهد السوسيولوجيا وولادة السوسيولوجيا الوطنية

معهد السوسيولوجيا . . . من الميلاد إلى الإغلاق

لم تخلف فرنسا بالمغرب جامعة يتابع بها المغاربة دراساتهم العليا ، أو معهدا للبحث العلمي . مثلما لم تترك وراءها موارد بشرية وطنية مؤهلة في حقل المناهج والبرامج والتخطيط والتسيير والتدبير . لذلك ستكون فكرة إحداث معهد للعلوم الاجتماعية بالمغرب ثمرة مجهودات الباحثين الفرنسيين الذين خبروا البلد بفضل أبحاثهم الميدانية وخبروا فرنسا لأنهم أبناؤها . جاك بيرك وأندري آدم وبول باسكون من الباحثين الفرنسيين الذين انتصروا للعلم ضد الاستعمار وللمغرب ضدا على فرنسا ولتأسيس معهد للعلوم الاجتماعية يتكفل بانتاج الاطر العلمية المغربية ضدا على استمرار التبعية الشاملة والكلية لفرنسا في هذا المجال . سنة 1956م سيؤسس بول باسكون مع مجموعة صغيرة من الطلبة المغاربة خلية بحث متعدد الاختصاصات وسيكون عملها الأول الذهاب الى جزيرة كورسيكا ، بتمويل من متحف الفنون والتقاليد الشعبية ، لانجاز دراسة عن تاريخ قرية كورسيكية . خلية البحث هاته حملت اسم الفريق المتداخل الاختصاصات للبحث في العلوم الانسانية (ايريش) . وتم تاسيسها تحت الصيغة القانونية لتعاونية عمالية للانتاج تؤجر خدماتها للدولة فقط . إنها الشكل الاول المنظم للسوسيولوجيا بالمغرب . ضمت المجموعة إلى جانب كريكوري لازاريف كلا من نجيب بودربالة وأحمد الحليمي . وقد اشتغلت الى حدود 1963م بتعاون كبير مع النقابة العمالية المغربية الاتحاد المغربي للشغل والتي كان مكتب

الدراسات التابع لها كما يقول بول باسكون مركزانشيطا للنقاشات السياسية والاجتماعية .

بعد مشاورات بين الجامعة المغربية (إنه الاسم الذي كان يطلق على جامعة محمد الخامس) عبر عميدها محمد الفاسي واليونسكو(شعبة العلوم الاجتماعية) ممثلة في خبرائها ، جاك بيرك الأستاذ بالكوليج دي فرانس وموريس ارارد الأستاذ بجامعة نيوشاتل ، سيتم الاتفاق على تأسيس معهد للسوسيولوجيا وسيتم إنجاز ذلك في 21 من يوليوز 1959م . ليفتح أبوابه أمام الطلبة في أكتوبر من سنة 1960م . معهد مهمته منح إجازة في العلوم الاجتماعية بعد ثلاث سنوات ودبلوم الدراسات العليا بعد سنتين من ذلك . لقد كانت مهمة خبراء اليونسكو تقديم الاستشارة لادارة المعهد بخصوص البرامج والمناهج التعليمية الخاصة بالعلوم الاجتماعية . وكذا تدريس السوسيولوجيا لطلبة المعهد .

الوضعية الادارية لمعهد السوسيولوجيا

منذ تاسيسه كان المعهد تابعا وخاضعا لسلطة مجلسه الإداري الذي يرأسه عميد الجامعة السيد محمد الفاسي . يتكون المجلس من عمداء كليات العلوم الإنسانية والقانونية والاقتصادية والاجتماعية وكذا الاساتذة الرسميون . ولأسباب عملية سيخضع المعهد من الناحية الادارية الى عمادة الجامعة وذلك منذ منتصف شهر دجنبرمن سنة 1960م .سيقبل السيد ادريس الكتاني تكليف الجامعة له بإدارة المعهد إلى حين أن يتم العثور على مدير مالك للمواصفات القانونية والعلمية المطلوبة لشغل هذا المنصب . وقد كان حينها الأستاذ الباحث السعداني

احد المرشحين لذلك .

سيشغل المعهد مؤقتا مقرا في بناية ملحقة بالمعهد العلمي الشريف (تخصصه فيزياء الكون) مكونا من مكتبين وقاعة للقراءة واخرى صغيرة للاجتماعات وفيها كانت تعطى الدروس للطلبة . أما المكتبة فلم تكن تتضمن سوى ما تم اقتناؤه بدعم من اليونسكو (2000دولار) . سنة 1961م ستكون صعبة من الناحية الإدارية . فالسيد ادريس الكتاني لم يكن قادرا على التوفيق بين متطلبات التدريس ومتطلبات التسيير الاداري بالمعهد . لم تكن هنالك غير طالبة كانت تقوم بمهمة السكريتيرة ، والمكتبة تحتاج إلى قيم ينظمها وعدد الطلبة في الشعبة الفرنسية الراغبين في تهيء الاجازة لا يتعدى ثمانية وستة يتابعون الدروس العربية لادريس الكتاني . سيحدث القسم العربي بالمعهد منذ يناير 1961م وذلك استجابة لرغبة بعض الطلبة واجتهادا لتوسيع عددهم . كان ادريس الكتاني يلقي اربع محاضرات للطلبة من الشعبة العربية وبالنسبة للشعبة الفرنسية كان الأستاذ وخبير اليونسكو رقم 2 يتقاسم مع أندري آدم مهمة إنجاز البرنامج . هذا العدد القليل من الأساتذة المؤطرين استدعى من السيد موريس ارارد (مبعوث اليونسكو) التفكير في استضافة أساتذة جدد . وكان ان وقع الاختيار على محمد جسوس الذي كان انذاك يهيء اطروحة الدكتوراه بجامعة برينستون باميريكا وعبد الله الفاسي الفهري المجاز في العلوم السياسية بالرباط وعبد الكبير الخطيبي الذي يتابع دراساته العليا بجامعة السربون بباريس . وهوالان موجز في السوسيولوجيا . والأستاذ بورسيي عن اليونسكو والاستاذ

رشدي فكار الذي سيقدم من جنيف . اضافة الى تفضل الدكتور محمد عزيز الحبابي المتخصص في الفلسفة بمنح دروس مدعمة داخل الجامعة حول الاخلاق والسوسيولوجيا .

معهد السوسيولوجيا في مرحلته الانتقالية [2]

تاسس معهد السوسيولوجيا المغربي اذن بفضل عميد الجامعة المغربية السيد محمد الفاسي واساتذة اليونسكو ومجهودات السوسيولوجيين المغاربة الشباب ورفاقهم من الباحثين اليساريين الفرنسيين . وبعد تاسيسه سيعيش فترته الانتقالية على جميع المستويات . على المعهد ان يضمن استقلاله المالي والمعرفي والبشري وذلك عبر تاهيل الموارد البشرية المحلية تاطيرا وبحثا وتسييرا .

التعليم بالمعهد

منذ خريف 1960م كان السيد موريس ارارد الأستاذ بجامعة نيوشاتيل وخبير اليونسكو يدرس مادة السوسيولوجيا العامة ،و التي سيتكلف بها الباحث أندري آدم فيما بعد ، ومادة تاريخ الأفكار السوسيولوجية والتي سيتكلف بها الاستاذ بيير بيكون المبعوث الجديد لليونسكو عوض السيد م . ارارد . سنة 1961م سيتم تمديد دروس السوسيولوجيا العامة لتشمل السنتين عوض الواحدة ، وسينضاف الى اطر التدريس الاستاذ المساعد رايمون لافارغ والذي سيعطي دروسا حول نظريات الطبقات الاجتماعية . كما ستعزز المحاضرات النظرية بالدروس التطبيقية والتي ستشغل وضعا إجباريا لكل من ظلبة السنة الاولى والثانية . وقد كان بول باسكون المؤطر الأول لهاته الدروس التطبيقية بالمعهد . إلى جانب دروس السوسيولوجيا

سيتم إضافة دروس في علم النفس الاجتماعي معززة هي الأخرى بالدروس التطبيقية وستوكل مع السنة الدراسية 62__63 إلى عبد الواحد الراضي الأستاذ المساعد بكلية الآداب آنذاك .لقد كان هاجس ادارة المعد ضمان أساتذة أكفاء وكافيون خصوصا في الانثروبولوجيا الاجتماعية . وعلى العموم فقد كان مسلك الفرنسية بالمعهد مقنعا الى حد ما رغم قلة المؤطرين .لقد عهد لبول باسكون الذي يمتلك خبرة علمية ومعه السيد مونتغمري دافيد هارت الذي قدم آنذاك الى المغرب في مهمة بحثية لحساب معهد التاريخ الطبيعي بنيويورك ، مهمة إدارة الأعمال التطبيقية وتدريس الأنثروبولوجيا الاجتماعية العامة والأنثروبولوجيا المغاربية . مقابل ذلك عانت الشعبة العربية من نقص في الأطر الكفئة . فإلى جانب ندرة الباحثين المغاربة الذين درسوا العلوم الاجتماعية بالعربية ، ظل الذين درسوها باميريكا أو فرنسا غير قادرين على إتقان اللغة العربية الكلاسيكية .

الشهادات المهيأة بالمعهد

استهدف المعهد منذ تأسيسه فتح أبوابه للطلبة الراغبين في الحصول على إجازة في العلوم الإنسانية موزعة على ثلاث تخصصات متكاملة ، تتوجها الاجازة في السوسيولوجيا .

– يخضع المعهد بدءا طلبته لتعليم تمهيدي الهدف منه تحريك وإيقاظ المعارف المكتيبة في السلك الثانوي ، وتتضمن مواد ه مدخلا للفلسفةعبر دراسة فصل من الفكر الاسلامي ومدخلا للدراسات التاريخية عبر دراسة فصل من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي ،وأخيرا

مدخل لدراسة القانون .

- شهادة الديموغرافيا والإحصاء الاجتماعي : وهدفها تكوين الديموغرافيين والإحصائيين والمتخصصون في تقنيات البحث الاجتماعي والتوثيق الإحصائي وتقنيات التحليل الإحصائي في مجال العلوم الاجتماعية ، إضافة إلى الاقتصاد السياسي العام والقانون الاجتماعي . .

- شهادة الأنتروبولوجيا الثقافية : ومهمتها ترسيخ المعرفة بالمبادئ والمظاهر الأساسية للحضارة التقليدية المغربية والإسلامية والإفريقية وكذا دراسة العقليات وتقنيات الفعل الاجتماعي . من بين موادها مناهج الإيثنوغرافيا والإنثروبولوجيا الثقافية النسقية ومدخل للجغرافية الإنسانية والاقتصادية وجغرافية إفرقيا والعالم الاسلامي وعلم النفس الاجتماعي والخدمات الاجتماعية . . .

- شهادة السوسيولوجيا : وهي الشهادة التي تتوج هاته المعارف ولا تترك أي مظهر من مظاهر ومكونات الظاهرة الاجتماعية المركبة والشاملة ، للنسيان . من موادها الأساسية تاريخ الأفكار والنظريات الاجتماعية المعاصرة والسوسيولوجيا السياسية والقانونية والاقتصادية وسوسيولوجيا المقاولة وسوسيولوجيا إفريقيا والعالم الإسلامي وسوسيولوجية الأسرة والمعرفة والسوسيولوجية الدينية . . .

لقد عاش المعهد مرحلته الانتقالية والتي كان من ثغراتها غياب مسلك للبحث العلمي بالمعهد من جهة ، وغياب الادارة المغربية الكفئة في القيادة . فالسيد ادريس الكتاني لم يعين سوى على سبيل التكليف

والسيد الوكيلي الذي خلفه لم يكن يتوفر على الوقت الكافي لإدارة مشاغل المعهد المتزايدة .لذلك كان ضروريا إيجاد مدير جديد بمواصفات علمية وقانونية تؤهله لذلك وكان عبد الكبير الخطيبي ذاك المدير ، ومع بدايته سيفوض المركز الجامعي للبحث العلمي لمعهد السوسيولوجيا مهمة خلق مسلك للبحث في العلوم الاجتماعية وذلك في انتظار النظر في مسالة التمويل والوضع القانوني للباحث ومقررات البحث . لقد كانت هاتان الخطوتان فتحا جديدا في المعهد وتحولا حاسما في مساره ومعه مسار السوسيولوجيا بالمغرب .

اغلاق معهد السوسيولوجيا في عز شبابه

بعد ادريس الكتاني والوكيلي سيتولى خبير اليونسكو الثاني بيير بيكون إدارة المعهد اضطرارا نظرا للفراغ الحاصل . وسيدبر أموره سنة 1965م سيحصل الخطيبي على الدكتوراه وسيتولى منصب مدير المعهد من66 إلى سنة اغلاقه 1970م . وهي نفس السنة التي سيتمتع فيها بول باسكون بمغربيته . لقد أصبح المعهد مؤهلا أكثر للمزاوجة بين التكوين والبحث ، خصوصا بعد تكوين مسلك خاص بالبحث من جهة وتملك ادارته لاستراتيجية عامة موجهة لمهمة العلوم الاجتماعية العلمية والاجتماعية والعملية . مهمة المعهد حسب الخطيبي وباسكون متعددة لكنها متكاملة في منح المغرب فرصته التاريخية لتملك تاريخه وزمانه ومكانه ومعرفته الذاتية بتغيراته وبنياته . على المعهد أن يكون باحثين ومعهم علوم اجتماعية مستقلة عن الدولة والمصالح الشخصية . علوم تستقي نتائجها وخلاصاتها ومعارفها من الميدان . (لا يتعلق الأمر

بنزعة تجريبية أو امبيريقية بل بتكوين نظري وتطبيقي في الآن ذاته) . سوسيولوجيا المعهد مهمتها مراكمة المعرفة الواعية حول التغيرات الحاصلة في النسيج الاجتماعي والاقتصادي المغربي . وذلك قصد الفعل في المجتمع والمساهمة في تحرره المعرفي والاقتصادي والسياسي . أنها سوسيولوجيا نقدية ومناهضة للمستعمر ولسيادة المخزن العتيق الذي لا زال حاضرا . ستوجه إدارة المعهد استراتيجية البحث والتكوين ناحية القرية المغربية ومعها التقعيد للسويولوجيا القروية . والأمر لا يرجع إلى الاستخفاف بالسوسيولوجيا الحضرية أو بباقي فروع السوسيولوجيا الاخرى ، بل بتكفل المعهد ضمن مرحلة أولى بالعمل عبر البحث والباحثين الشباب آنذاك عن جواب للسؤال : لماذا انكسر التاريخ الكبير للمغرب ومتى حصل ذلك؟ وسيتم التوجه نحو العالم القروي لأن تفكيك المجتمع المغربي وفتح منافذ الولوج الاستعماري والرأسمالي إلى قيمه وسلوكاته وعلاقاته الاجتماعية ومؤسساته . . أي إلى نسيجه الاجتماعي والاقتصادي العام ، لم يكن ممكنا سوى عبر القرية المغربية بمخزنها وقوادها وباشواتها . . .

إنها الفرضية الكبرى التي تفسر وتوضح توجه أبحاث المعهد بعد 1965م في مجملها نحو الاستكشاف الميداني للعالم القروي على مستويات عدة . (المرأة ، الشباب ، الأرض ، الإصلاح الزراعي ، المؤسسات القروية التقليدية ، المخزن ، القيدلية ، التراتبات الاجتماعية ، الطبقات الاجتماعية ، المؤسسات الدينية القروية . . .) . وقد جند المعهد لذلك طاقات باحثيه وأساتذته وخلق موازاة معها فضاءات عمومية للنشر

والتداول . سنة 1965م ستتأسس على هامش المعهد جمعية البحث في العلوم الاجتماعية ، وسيشرف عبد الكبير الخطيبي بمعية بول باسكون على إصدار المجلة المغربية للاجتماع وللاقتصاد المغربية (بالفرنسية) وبعدها سيصدر المعهد مجلة الحوليات المغربية للسوسيولوجيا ، بثلاث لغات ؛ مجلة اعتبرها أندري آدم مجلة علمية مغاربية يصدرها شباب معهد السوسيولوجيا الذي يديره عبد الكبير الخطيبي ،والتي تتواصل مع قرائها بالعربية والفرنسية والإنجليزية والإسبانية في بعض الأحيان .

لقد شكل معهد السوسيولوجيا منطقا من درجة ثانية في عملية مأسسة العلوم الاجتماعية بالمغرب ، إذا ما قارناه بالمجهود الأول والفردي لبول باسكون وكذا للجامعة المغربية ، مأسسة أكاديمية أولا وذات خط استراتيجي مغاير ثانيا ، مع سنوات 67 و68 ، أكثر من 300 طالب وأكثر من مجلة وأكثر من دراسة ميدانية منجزة وأخريات في مجرى الإنجاز . وبالموازاة مع ذلك سيصبح المعهد أكثر من مؤسسة أكاديمية للبحث والتعليم فقط ، بل بؤرة للنقاش والتداول المعرفي للمفاهيم والنظريات وقياس مدى تطابقها مع أواليات المجتمع المغربي . مع نهاية الستينات وفي لحظات عطاء المعهد وباحثيه الأكفاء والشباب ، سيتقاطر على المغرب الباحثون الأنكلوساكسون باختصاصاتهم المتعددة وعدتهم النظرية والميدانية . سيعود م . دافيد هارت الذي خبر المعهد لحظات تأسيسه الأولى ، وسيحل بالمغرب جون واتربوري صاحب أمير المؤمنين وكليفرد كيرتز الذي سيتوجه إلى صفرو لدراسة بازاراته ووليام زارتمان وأرنست كيلنر صاحب صلحاء الأطلس ، ودايل أيكلمان لدراسة الشرقاويين وبول

رابناو الذي سيشتغل بدءا مع كيرتز وبعدها بشكل مستقل (لقد تطرقنا في حلقات هذا الصيف على نفس الصفحة لهؤلاء الأعلام ولبحوثهم حول المغرب) . سيحل كل هؤلاء في لحظات ألق المعهد بالمحيط المتوهج والمتأجج اجتماعيا وطلابيا الذي يلفه ، وكأن الامر يتعلق بعودة القوة للآخر ولرؤيته والتي تحمل هاته المرة رهانات مغايرة ومختلفة عن رهانات السوسيولوجيا الكولونيالية الفرنسية . سيجتمع سوسيولوجيو ومؤرخو وأنثروبولوجيو الدار ، وربما لأول وآخر مرة وسيطلقون عياراتهم النظرية والميدانية على الأطروحات الأنكلوساكسونية ممثلة في الرؤية والنظرية التجزيئيتين والسكونيتين للمجتمع المغربي . وسيكون عبد الله العروي أقساهم في الدفع بالأنكلوساكسون إلى صلب وقلب السوسيولوجيا الكولونيالية الفرنسية (إعادة إنتاج أطروحة روبير مونتاني) . وسيدعمه في ذلك كل من بول باسكون والخطيبي وعبد الله حمودي بكتاباتهم حول الموضوع ودحض الأطروحة نظريا وميدانيا .

إنها خطة قيادة الصراع على أعلى مستوى داخل الحقل العلمي وكذا صيانة الاستراتيجية العلمية والعملية للمعهد . سيحقق معهد السوسيولوجيا إشعاعه العلمي والعملي وسيكون من حسن حظ المعهد أومن سوئه ، مصادفة تألقه للنهوض الطلابي (انتفاضة الطلاب بفرنسا سنة 68 وتزايد قوة واتساع الاتحاد الوطني لطلبة المغرب ، وآثار النكسة العربية لسنة 1967م) . سيتضخم وضع المعهد على لسان طلبة الاتحاد الوطني وسيتم التركيز على يساريته ويسارية باحثيه وإدارييه واستراتيجياتهم العلمية . سنة 1970 م سيتم عقد مناظرة

ايفران حول اصلاح التعليم تحت رئاسة الملك الراحل الحسن الثاني وسيحضرها الخطيبي بحكم كونه مديرا للمعهد وسيتم إخباره حينها بأن معهد السوسيولوجيا قد تم إغلاقه . وبأنه وزملاؤه ، عبد الله العروي ومحمد الناصري ومحمد جسوس وعبد الواحد الراضي موقوفون عن العمل . تلك هي حكاية معهد السوسيولوجيا وبقيتها تعيش تبعاتها السوسيولوجيا والمجتمع المغربي على حد سواء .

5- انكسارات التقعيد

إغلاق أبواب معهد السوسيولوجيا ، بقدرما هدم البنية المؤسساتية التحتية للسوسيولوجيا وأوقف مسار تقعيدها نظريا وتطبيقيا ، بقدر ما كان مؤشرا على ولوج المغرب السياسي مرحلة العطالة . طيلة خمس سنوات وإلى حدود 1975م ، سنة صدور ظهير21 فبرايرالذي سيسمح بعودة معهد السوسيولوجيا من جديد تحت إسم «المعهد الجامعي للبحث العلمي» ، سيعيش المغرب أحداثا متتالية دشنتها محاولتا الإنقلاب الفاشلتين لسنة 1971 و1972م ، وتلاها تعديل قانون الحريات العامة لتقليص مساحة الحريات ومنع الإتحاد الوطني للقوات الشعبية بعد رفض المعارضة المصادقة على دستور 1970م وحظر النقابة الطلابية ، الاتحاد الوطني لطلبة المغرب . . .

طيلة خمس سنوات سيتغير الوجه الداخلي للمغرب ، وسيكون للأمر آثاره السلبية على مسار السوسيولوجيا وطموح السوسيولوجيين المغاربة إلى تقعيد سوسيولوجيا وطنية مستقلة ونقدية . سيعود معهد

السوسيولوجيا لكن بعطاءات ظل الفتور يلاحقها إلى حدود الآن . سيحتضن المعهد أربعة شعب ، هي التاريخ والأنثروبولوجيا وشعبة العلوم الاجتماعية ثم شعبة العلم والمجتمع وأخيرا تقارير عن المدن والقرى . مثلما سيحافظ على استمرارية إصداره للمجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع وإسبيريس تمودة ، بوصفهما الصيغتين الجديدتين والوطنيتين لكل من مجلتي إسبيريس التي أسسها روبير مونتاني والإقتصاد والإجتماع التي ظلت الإقامة العامة الفرنسية تحافظ على انتظام صدورها . ستؤثر أحداث المغرب السياسي سلبا على النفس السوسيولوجي للمعهد مثلما ستلاحق متغيرات الحقل الحزبي المجال الأكاديمي عموما والسوسيولوجي بشكل خاص .

على هامش ذلك ، سيظل معهد الحسن الثاني للزراعة والبيطرة ، في بداية عطاءاته . فقد فتح أبوابه فعليا (أسس سنة 1963م) أمام الطلبة المغاربة سنة 1966م ، وفي عز السنوات الصعاب سيفتح تخصص الطب البيطري (1970) وسنة 1972م سوف يتخرج منه أول فوج من المهندسين الزراعيين . سيرحل بول باسكون بمشروع تقعيد السولوجيا ، وبتجربته التدريسية والبحثية في معهد السوسيولوجيا ، إلى معهد المهندسين الزراعيين وسيحوله إلى عش جديد للسوسيولوجيا عموما والقروية منها على وجه الخصوص . وإلى حدود مفارقته الدرامية للحياة سنة 1985م ، ظل بول باسكون مع طلبته وأصدقائه يشمون مسار السوسيولوجيا بأعمال وأبحاث لم تفقد إلى حدود الآن جدتها وجديتها .

الموت العجائبي لبول باسكون شكل انكسارا ثانيا في مسار تقعيد

سوسيولوجيا مغربية ، بعد الإنكسار الأول الذي جسده إغلاق معهد السوسيولوجيا . انكساران ستجد السوسيولوجيا بالمغرب نفسها ، بعدهما ، في حالة إعاقة دائمة التجدد . مع عقد الثمانينات ستعيش السوسيولوجيا إختناقها (ينعت البعض هاته العشرية بمرحلة الأزمة أو مرحلة النمو المعاق) ، وكذا لحظات مقاومتها . سياسيا سيعتمد المغرب سياسة التقويم الهيكلي التي إلى جانب أثارها الإقتصادية والإجتماعية الوخيمة ، ستخيم ظلالها المميتة على التعليم بشكل عام والجامعي منه على وجه الخصوص . ستستهدف مجانية التعليم ، مثلما ستستهدف شعبة الفلسفة في الجامعات المغربية ، أولا عبر محاولة إغلاق باب التسجيل فيها ، وثانيا عبر تاسيس شعبة الدراسات الإسلامية بكليات الآداب . وثالثا عبر تغييبها تماما من برامج الدراسة في الكليات والجامعات المستحدثة بكثير من المدن المغربية . ورابعا عبر نقل تجربة التعريب إلى التعليم العالي . يعتبر ألان روسيون أن أزمة السوسيلوجيا في هاته اللحظة تجد جذورها ، إضافة إلى الجزر المؤسساتي في التفاوت الحاصل بين المشروع المعلن عنه والمتعلق بتعريب العلوم الإجتماعية ، والإنجازات الفعلية على مستوى البحث . لقد عمل فعل التعريب ، في مستوى أول على قطع الصلة بين الأجيال الصاعدة والتراكم المعرفي الذي حصل في مجال العلوم الإجتماعية المحلية بشكل خاص والفرنكوفونية بشكل عام ، وفي مستوى ثان سيفرش التربة لإعادة إحياء التنظيمات والأطر الفكرية الإجتماعية التقليدية المقطوعة الصلة عن التيارات العلمية المعاصرة[18] . منذ ثمانينات القرن الماضي سترتفع

وتيرة المطالبة بأسلمة العلوم الإجتماعية ، وستطرح مشاريع إرساء علوم حقة وإجتماعية إسلامية (فيزياء إسلامية وسوسيولوجيا إسلامية وعلم اقتصاد إسلامي . . .) .

وعلى الرغم من كل تلك المؤشرات المعيقة لنمو البحث السوسيولوجي وتجذره في البنية العلمية والإجتماعية العامة ، فقد اتسمت عشرية الثمانينات بنقط مضيئة إذا ما قارناها بالعشرية اللاحقة لها . ينعت محمد الصغير جنجار ، في دراسته البيبليوميترية[19] ، عقد الثمانينات بكونه يجسد مرحلة التوسع في عدد الأطروحات والرسائل الجامعية ، مثلما يعتبره لحظة خاصة في تطور البحث والتكوين الجامعي . لقد استثمر الطلبة الباحثين سياسة البعثات الطلابية الى الخارج والمدعمة بمنح الجامعات ، وتمكنوا بفضل ذلك من إنجاز أطروحات ورسائل خارج المغرب ، مكنتهم فيما بعد من تطعيم هيأت التدريس والبحث في جل الجامعات المغربية . إلى جانب ذلك سيتمكن هؤلاء من إعادة فتح البحث في العلوم الإجتماعية ، معرفيا ولغويا ، على ما أنجز في البلدان الأوربية والأميركية ، ومن ثم وضع الطلبة الباحثين في صلب الإشكالات المعاصرة لتلك العلوم .

إلى جانب التوسع الكمي والنوعي للبحث العلمي الإجتماعي في هذا العقد الزمني ، سيتم ولأول مرة في تاريخ السوسيولوجيا تحويل السوسيولوجيا الكولونيالية الى موضوع للمعرفة . وذلك عبر إرساء التمييز بين «العلوم الكولونيالية» و«الحدث الإستعماري» . وسيكون للنقاشات الإبستيمولوجية حول المعرفة الكولونيالة وكيفيات التعامل

معها أثره البليغ على استعادة السوسيولوجيا لخاصيتها النقدية المزدوجة تجاه الإنتاج الكولونيالي والوطني على حد سواء . وستكون مساهمات الباحثة فاني كولونا وبول باسكون والمقالة الفاتحة والجريئة لسوسيولجي القانون نجيب بودربالة دورها الريادي في هذا الشأن[20] . لقد عايشنا هاته النقاشات وما استتبعها من صراعات مفتوحة داخل شعبة السوسيولوجيا بكلية الآداب بالرباط وبينها ومعهد الحسن الثاني للبيطرة والزراعة وكذا الهجومات المتعددة الألوان على بول باسكون وأصدقائه من الباحثين ، ونحن نهيء بجامعة محمد الخامس بالرباط دبلوم الدرسات المعمقة ، مثلما ارتوينا بها منهجيا في رسالتنا لنيل دبلوم الدراسات العليا والتي أنجزناها بكلية الآداب ظهر المهراز بفاس التي تعززت شعبتها آنذاك بفتح أبواب السلك الثالث لأول مرة سنة 1987م . كان هذا الحدث دفعة جديدة للبحث السوسيولجي في هاته العشرية .

لقد شكلت تلك النقاشات والصراعات نقطة قوة السوسيولوجيا في عقد الثمانينات ، وعلى الرغم من الإختلافات الإيجابية بين السوسيولوجيين المغاربة آنذاك ، فقد كانت حروبهم الداخلية لا تلهيهم عن التأطير الجدي لطلبتهم الباحثين وتوجيههم إلى البحث في المناطق الساخنة للمجتمع والفكر عموما (لقد كان السوسيولوجي محمد جسوس ، إضافة إلى توجيه طلبته لإنجاز المونوغرافيات ، يتوفرعلى متن وثائقي مهم عن دعاوى أسلمة العلوم الإجتماعية وظل ينقب داخل طلبته عمن يخضع تلك الدعاوى إلى الفحص السوسيولوجي الأكاديمي) .

على هامش ذلك ستدعم الجمعية المغربية لعلم الإجتماع حركية الوصل والتواصل بين الباحثين ، مثلما ستفتح قضايا السوسيولوجيا على محيطها المدني . وسيسند الوضع السوسيولوجي العام خلال هاته العشرية بدعم بنيات البحث التحتية من طرف الخواص . ستتعزز الخزانة العامة التي بدأ التعب يظهر على خدماتها ومخزونها الوثائقي بتأسيس الأب جاك لوفرا سنة 1981م لمكتبة «لا سورس» بالرباط ، والتي شكلت مركزا للبحث والتوثيق والندوات واللقاءات . ومصدرا لتلبية حاجيات الطلبة الباحثين في مجال العلوم الإجتماعية . مدينة الدار البيضاء ستشهد ميلاد مؤسسة الملك عبد العزيز للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية سنة1985م ، وهي مؤسسة علمية توثيقية وثقافية ، من بين مهامها خدمة البحث العلمي في العلوم الاجتماعية والانسانية في المغرب العربي . وقد كانت فعلا ، ولازالت ، ملاذا للباحثين في مجال العلوم الإجتماعية .

مع عقد التسعينات ستنقلب موازين القوى المعرفية واللسانية التي سادت في عقد الثمانينات . ستصبح اللغة العربية أداة البحث الجامعي الأساسية ، مثلما سيتصاعد الاهتمام بالدراسات الإسلامية ، سواء من داخل الجامعة أو عبر دار الحديث الحسنية . وسيتراجع البحث في مجال العلوم الاجتماعية والسوسيولوجية ، لتتراجع معه القيمة المعرفية والعلمية لما يتم تدريسه وإنجازه سواء من طرف هيآت التدريس أو الباحثين والطلبة الباحثين . الأمر الذي سينعكس مباشرة على وضعية الباحث السوسيولوجي . يشخص الباحث الجزائري الطيب بوشنتوف

ذلك عبر رسم صور أربعة للسوسيولوجي المغربي والمغاربي حاليا :

- باحثون سوسيولوجيون فضلوا الإنخراط في الأحزاب السياسية المستحدثة والتفرغ لمهامهم الجديدة .

- البعض الآخر ظل محتفظا بمنصبه الجامعي لكن ليمارس الخبرة لصالح المقاولات الخاصة والتنظيمات الوطنية والدولية .

- آخرون فضلوا الهجرة إلى جامعات ومراكز بحث أوروبية وأميريكية .

- ما تبقى من الباحثين يعيشون ظروفا صعبة داخل الجامعات بحكم التوجهات نحو المنة على حساب التكوين العلمي والمعرفي وهم يجعلون من التدريس نشاطهم الوحيد إلى جانب حضورهم في تنشيط المجال الجمعوي المدني(21) .

لقد رسمت عشرية التسعينات صورة جديدة للسوسيولوجي المغربي وعمقت انكساراته .

6- السوسيولوجيا الآن:

مع مطلع التسعينات ، وبالضبط في 25 يوليوز من سنة 1992م ، ستتأسس جامعة الاخوين بمدينة إفران ، وستضم بين كنفيها كلية للإنسانيات والعلوم الاجتماعية مثلما سينشر طلبتها وباحثوها دراسات ومنشورات في مجلات دولية أكاديمية . ومع منتهى التسعينات (1999م) سيتأسس مركز جاك بيرك للدراسات في العلوم الاجتماعية والانسانية بالرباط والذي سيركزأنشطته ودوريته على البحث في موضوعات

الإسلام والسياسة وسوسيولوجيا المدن وإعداد التراب الوطني . . . لقد ساهم تأسيس جامعة الأخوين في الرفع من حدة ودرجة التساؤل عن وضعية التعليم العمومي العالي عموما والجامعة المغربية خصوصاعلى جميع المستويات : مستوى ونجاعة التكوين ، البحث العلمي ، العلاقة بالمجتمع المحيط ، العلاقة مع سوق الشغل ، النخب والأطر المتخرجة منها ، المقررات والبرامج ، مناهج وبيداغوجيات التدريس موقع العلوم الاجتماعية والانسانية . . . إلخ .

ستشكل الألفية الثالثة مجالا لإخضاع الجامعات والمعاهد التابعة لها لمشاريع إصلاح تستهدف معالجة المعضلات المطروحة أعلاه . في السياق الذي يهمنا ستفتح الجامعات الجديدة برامجها ومقرراتها للفلسفة وا لعلوم الاجتماعية وعلى رأسها السوسيولوجيا . لكن في سياق نظام بيداغوجي مشكل من مكونات أكاديمية وأخرى مهنية ، وتسميات جديدة للديبلومات الوطنية ، وتصور للجامعة كمقاولة ذات طبيعة سوسيواقتصادية ، مهمتها الرئيسية ترسيخ الثقافة المقاولاتية المسنودة بتملك اللغات والمهارات التقنية ، كل ذلك لأجل تهييئ الطلبة للاندماج في النشاط الاقتصادي والاجتماعي .

على مستوى البحث العلمي سيتم رسم سياسة عامة للجامعة المغربية ، بكلياتها الجديدة المتعددة التخصصات ، ستميل بشكل أساسي إلى البحث التطبيقي والبحث التدخلي على حساب البحث الأساسي الذي يتطلب تكوينا متينا ومدد زمنية أطول . أما الموضوعات العامة التي أصبحت رهانا لتلك السياسة العلمية فتدور حول الموارد

المائية والجفاف والتصحر والثروة السمكية والبحث الزراعي والطاقة والتلوث والبيئة والأمراض المعدية والمستفحلة والتعمير وهيكلة العالم القروي والأمية والمدرسة والشباب والجريمة والإعلام والتواصل والمقاولة ومعضلة التشغيل والتنمية والعقليات . . .

موضوعات أهميتها ليست بالهينة سواء بالنسبة للعلوم الصرفة أو الاجتماعية والإنسانية ، لكنها ستظل خصوصا في مجال العلوم الاجتماعية عناوين للبحث ، وطموحات لمسالكها . وأسباب ذلك عديدة ومتنوعة المصادر .لقد خضع تأسيس مسالك السوسيولوجيا بكليات الآداب بالجامعات المستحدثة إلى استراتيجية الترميق ، فعلى مستوى هيأت التدريس فقد تشكلت على أساس العلاقات والصلات والضرورة ، بعيدا عن كل معايير القيمة العلمية والبحثية والأكاديمية المؤهلة لمنصب التدريس والتأطير العلمي . زد على ذلك الخضوع لمنطق الضرورة الذي جعل مسالك السوسيولوجيا تستعين بمدرسين ينقصهم التكوين التخصصي خصوصا وان مقررات الدراسة تحتضن مواد نظرية وتطبيقية لا مجال فيها لصناعة البلاغة . إلى جانب ذلك لا تتوفر المسالك على موارد بشرية ولوجيستيكية ومالية لتدبير البحث التطبيقي المؤهل لتهييء الطلبة والطلبة الباحثين للاندماج السهل في سوق الشغل . زد على ذلك ضعف الطلب المؤسساتي على السوسيولوجيا وانعدام الثقة في منتج الجامعة العمومية . . . عوامل وأخرى كثيرة ستجعل وضعية العلوم الاجتماعية عموما والسوسيولوجيا على وجه الخصوص ، تطرح أكثر من سؤال عن هويتها ومهماتها وقيمتها الاجتماعية في ظل مجتمع

يمكن اعتباره الآن في أمس الحاجة الى خدماتها الإبستمولوجية والنظرية والعملية .

أنجز السوسيولوجي المغربي محمد الشرقاوي مؤخرا بحثا لفائدة وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي حول سياسة البحث في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية . اعتمد البحث على ستة تقارير ، منها ما كان حول لقاءات محورية مع 300 أستاذا باحثا ، واستجواب عينة مكونة من 1400 أستاذا باحثا من أصل 3600 والذي هو عدد الأساتذة الباحثين في العلوم الاجتماعية والإنسانية ، إضافة إلى بحث بيبليوميتري مكن من كشف وتحليل 57 ألف إصدار تشمل تقريبا كل الإنتاج المغربي خلال الفترة الممتدة من 1960 إلى 2006م . توصل البحث في المجال الذي يخصنا إلى الكشف عن نتائج لا تحتاج بحكم فصاحتها الكاملة إلى أي تعليق :

- 55 في المائة من الأساتذة الجامعيين لم ينشروا أي إنتاج علمي طيلة حياتهم المهنية .

- انخفض الإنتاج العلمي في مجال العلوم الاجتماعية خلال الفترة 2006/2002 بنسبة الثلث .

- جل المؤسسات الجامعية لم تمكن نصف هيئة تدريسها من نشر وثيقة واحدة طيلة الخمسة عشرة سنةالأخيرة .

- لا ترتبط الترقية في الجامعات بالمنشورات ، كما أن الدولة لا تستثمر موارد مالية من أجل البحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية ، إذ إن سبعة في المائة من الميزانية المخصصة للبحث تتجه لهذه العلوم

بينما الباقي يخصص للعلوم الدقيقة .

- 70 في المائة من الأساتذة الجامعيين غير راضين عن آدائهم المهني .

- ثلث العينة من المستجوبين يرغب في مغادرة مهنته . 40 في المائة يرغبون في ممارسة مهن مستقلة كالتجارة وإحداث مقاولات ، و46 في المائة يرغبون في ممارسة مهنة حرة .

- تحول مناصب التدريس لفائدة الأساتذة على حساب المساعدين والأساتذة المساعدين . مما ينعكس على فعل التحضير والتأهيل . فالأساتذة المساعدين والمساعدين كانوا يشكلون في السابق 94في المائة مقابل 6 في المائة من الأساتذة ، بينما اليوم لا تمثل الفئة الأولى سوى 36 في المائة مقابل 64 في المائة للفئة الثانية . إنها مؤشرات عدم التوازن الخطير والذي فاقمته المغادرة الطوعية وعالجتة الوزارة الوصية بالاستعانة بالعرضيين .

خلص البحث في النهاية إلى الدعوة إلى ضرورة «التعجيل بإحداث مجلس أعلى للبحث في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية» تسند إليه مهمة إعداد سياسة وطنية للبحث في مجال العلوم الاجتماعية .

إدمون دوتي . . من الرحلات إلى رصد المعتقدات

يعتبر إدمون دوتي الى جانب كل من أوكيست مولييراس وشارل دوفوكو من أهم أعلام الإثنوغرافيا الفرنسية التي غطت نهاية القرن التاسع عشر بالوصف والتجوال والترحال بين المدن والقبائل المغربية . وتعتبر رحلتا «مراكش» و«في رحاب القبائل» الإنجاز الأكبر لهذا الاثنوغرافي . لقد تمكن من خلالهما تغطية مجالات قروية وقبلية متعددة من حيث جغرافيتها ولغاتها وسلوكاتها ومعتقداتها . من مراكش سيخرج إ . دوتي ليتنقل بين أغمات وزاوية تحناوت ومولاي ابراهيم فقبائل مصمودة والأطلس الكبير ، فقبيلة حاحا والصؤيرة أو موكادور ثم الرباط فمكناس (بلاد عيساوة كما نعتها دوتي) ومولاي ادريس زرهون . . . وبعدها سينجز رحلته الثانية ، والتي سينطلق فيها من البيضاء باتجاه أزمور عبر الشاوية ، ثم من أزمور عبر دكالة حيث سيعاين وسيصف ويصور الأضرحة والأسواق والدواوير ويسجل أغاني الحصاد . . . وبعدها سيتجه نحو الرحامنة عبر قلعة السراغنة حيث سيدون كل ما يتعلق باللباس والمأكل وطقوس الزواج والولادة وأنماط حلاقة الشعر والختان والجنازة والأعياد الدينية وطقس الاستسقاء والعنصرة ولعبة شيرة ثم الأوضاع الاجتماعية للقبيلة ، ليختم رحلته بالعودة الى مراكش .

تتخلل رحلات دوتي معطيات نظرية وسوسيولوجية موزعة بين مارسيل ماوس وإميل دوركهايم وفرايزر وتايلور ، مثلما يخترقها إحساس الأوروبي الذي يكتشف ويندهش من كل أنماط العيش البسيطة والتي تذكره بأوروبا القرون الوسطى ، ويتأسف على بدائية العيش والملبس والمأكل مثلما يأمل أن يتمكن الأهالي من التعاون مع الأوربيين لأجل إدخالهم الى قارة الحضارة وإخراجهم من وضعية العتاقة والتوحش .

تحت ظل نزعته المنهجية الوضعية والتطورية ورومانسيته الشخصية يقدم دوتي في رحلاته معطيات أنتروبولوجية واجتماعية ولسانية وفؤتوغرافية للقبائل والزوايا ، يرغب من ورائها أن يبين للأوربيين عامة وفرنسيو المتروبول جمال المغرب وفقره ، ثرواته الثقافية والطبيعية وبساطة أهله وسذاجتهم وبدائيتهم وذلك لأجل تحميل فرنسا مهمتها التاريخية والتنويرية المثمتلة في إدخال الحضارة دون تدمير الطبيعة .

يندهش إ .دوتي مثله في ذلك مثل شارل دوفوكو وآخرين من مفارقة كبرى اخترقت مغرب القرن التاسع عشر . مفارقة متعايشة بشكل عجيب وغريب لدرجة يصعب تصديقها بالنسبة لمن لا يعرف المغرب والمغاربة . تتجسد هاته المفارقة في كون النظام الاقتصادي المغربي فقير ومنغلق على ذاته ويعتمد على الكفاف والاكتفاء الذاتي للقبائل ، في حين تنبني العلاقات الاجتماعية على الشرف والبذخ والإسراف والبذل سواء في فعل البناء أو التخريب . فسواء في النزاعات والخصومات القبلية أو في طقوس الحياة والموت يحضر البذل

والبدخ في شكل هدايا وعطايا وأضاحي ومأكولات . . .

هذا اللاتوازن واللاتكافؤ بين الاقتصادي والاجتماعي وصفته الأنتروبولوجيا مع كل من ماوس وفرايزر في المجتمعات المسمات بدائية ويؤكده دوتي باندهاش كبير عبر رحلاته ليلحق المغرب العتيق بالمجتمعات البدائية والتي تستطيع وحدها أن توازن بين اليات تدبير اقتصاد الكفاف وبذخ العلاقات الاجتماعية .

لقد شكلت ملاحظات دوتي المرحلة الأولى التي ستدفعه لتخصيص دراسات متفرقة حول القبائل (قبيلة حاحا مثلا) وأخرى حول الزوايا (عيساوة مثلا) وبعدها سيمر إلى البحث النظري المعمق والمسنود بالمعطيات الميدانية السالفة الذكر . سينجز إدمون دوتي لأطروحته الأساسية حول «السحر والدين في افريقيا الشمالية» وهي عبارة تدشين لسوسيولوجيا الدين بالمغرب .

يدمج دوتي في مؤلفه السابق الذكر جزء لا يستهان به من رحلته مراكش وذلك لاثبات أطروحته الأساسية والمتمثلة في كون السحر إبداع جماعي وجمعي ولأنه كذلك فهو أصل الدين . بل إننا لا يمكن أن نفهم ونفسر الديانة دون فهم للسحر . لقد عمل الإسلام في نظر دوتي على فتح الباب أمام المعتقدات السحرية وذلك عبر الدعوة إلى الاعتقاد في الجن . إضافة إلى ذلك يرى دوتي أن الإسلام لم يعمل سوى على تعويض الرموز السحرية با لرموز الدينية (تعويض أسماء النجوم بأسماء الله الحسنى) .

يسند دوتي أطروحته تلك بالمعطيات الأنثروبولوجية الفرنسية والإنجليزية مثلما يدعمها بما عاينه وجمعه خلال رحلاته عن السحر والممارسة الطقوسية السحرية بالمغرب (طقوس العين العائنة ، طقوس البحث عن الكنوز ، طقوس دفع الحسد ، طقوس جلب الحظ ، طقوس الخصوبة ، الطلسمن والحروزة . . . .) طقوس يصعب تلخيصها وإيجاز المعتقدات الكامنة وراءها .

يختم دوتي مؤلفه الضخم عن المعتقدات الدينية والطقوسية بالمغرب بفصل خاص عن التضحية والأضحية . وذلك لكي يكمل خطاطته النظرية بالرجوع إلى اللأطروحة الدوركهايمية حول الطوطمية . يجد هذا الفصل موقعه في تصور دوتي لعلاقة الإسلام المغربي بالسحر في كون العلاقة بين الساحر والعالم الإلهي تتطلب أضحية – حيوانا يكون هو وسيلة التوسط والعبور . ويسرد دوتي بهذا الخصوص طقوس الزوايا حيث ينتشر طقس التضحية بحدة وشساعة غير معهودة في باقي الطقوس الأخرى . وذلك لكي يعود من جديد إلى ختم مؤلفه بالعودة إلى مجال المقدس وخاصياته في الإسلام المغربي .

جورج دراغ . . . تاريخ المغرب الديني

جورج دراغ او جورج سبيلمان هما اسمان لمسمى واحد . وشم المغرب والباحثين السوسيولوجيين المغاربة بمؤلفه الطامح الى رسم معالم التاريخ الديني المغربي . ضمن تقديمه لمؤلف دراغ يقول روبير مونتاني بعد أن أصبح أستاذا بالكوليج دو فرانس ، أن جورج دراغ لا يقدم لنا كتابا أكاديميا فقط بل لقد عاش لمدة ربع قرن بين المغاربة واعتمد في كتابه على كل الدراسات السابقة والمعاصرة له ، مثلما سند معطياته ومعلوماته بمصادر متعددة ، منها ما جمعه ضباط الشؤون الأهلية والمراقبون المدنيون والعسكريون ومنها ما استقاه مباشرة من شيوخ الزوايا . قام جورج دراغ بمقابلات عديدة مع شيوخ الزوايا وذلك لكي يمدوه بالمعطيات الخاصة بزواياهم وفروعهم وعدد أتباعهم ومبادئ طريقتهم وشجرات أنسابهم . وكان الشيخ عبد الحي الكتاني أحد المساعدين الأساسيين في التقرب من فهم الوضع الفعلي للزوايا في المغرب . لقد اشتغل جورج دراغ بهاته الطريقة كي يتلافى نواقص الأبحاث السابقة في هذا المجال وفي الآن نفسه لكي يضع المؤسسة الاستعمارية أمام التاريخ الفعلي للمؤسسات الدينية المغربية ومقدراتها على الفعل والتأثير في الحاضر الاستعماري .

يعتبر جورج دراغ في تمهيده لمؤلفه أن القصد من وراء بحثه ليس هو سرد الحركات الدينية وبيان مرجعياتها بل موقعتها ضمن سياقها التاريخي المحلي . في هذا السياق يقول بأن تاريخ المغرب ليس

معروفا بالشكل الحقيقي ، فالمؤرخون المغاربة لم يقوموا سوى بسرد الأحداث المتعلقة بالسلاطين والأمراء الحاكمين وكذا معاركهم ودسائس قصورهم . وهو ما لا يسمح حسب نفس الباحث باستنباط الوجه الحقيقي للمجتمع المغربي . بناء على ذلك ينبه دراغ الباحثين الأوروبيين إلى ضرورة العمل على كتابة تاريخ القبائل وإعادة تشكيل هجراتهم وصراعاتهم وحياتهم الاجتماعية . هذا المطلب والمشروع العلمي يعتبر لصيقا بمشروع كتابة تاريخ الطرق والزوايا والتي تشكل الوجه المميز للإسلام المغربي .

يستهل دراغ كتابه بالتطرق للمرحلة ما قبل الإسلامية على شاكلة سابقيه فالمقصود هو بيان أن كثيرا من المعتقات والشعائر كانت موجودة قبل الإسلام ، وبعدها يمر إلى عملية أسلمة المغرب وتأسيس أول دولة اسلامية والتي هي دولة الادارسة . لا تشكل الفصول المتضمنة في الكتاب والتي ترصد التاريخ الديني الى حدود الدولة السعدية أهمية كبرى مقارنة بغيرها ، بل إن قوة المؤلف تكمن في إرسائه للشكل الذي اعتمدت فيه الدولة السعد ية على الصلحاء لإرساء الطابع الشريف للدولة الجديدة مقارنة بسابقتها المرينية ، وكذا بيان المفارقة الأساسية الكامنة في لجوء سلاطين هاته الدولة الى امتحان الصلحاء وشيوخ الزوايا لحظة قوتها . لقد أسس السعديون دولة الشرف المتجاوزة لدولة العصبية القبلية وكان الصلحاء من أتباع الجزولي عماد هدا التأسيس لكنهم سيشكلون الضحية الأولى لهاته الدولة الشريفة .

بموازاة ذلك سيخصص جورج دراغ فصولا خاصة بالزوايا التي عاشت مساندتها وكذا صراعاتها مع السعديين وبعدهم العلويين .

مع الدولة العلوية سيرسي جورج دراغ اطروحة أساسية سيشغلها سوسيولوجيين مغاربة وازنين من مثل بول باسكون وتتمثل في أن الدولة العلوية لم تنشأ بناء على دعم الصلحاء كما كان الأمر مع الدولة السعدية ، بل أنها لا تدين من حيث نشأتها بشيء للزوايا والصلحاء . لقد انبنت الدولة العلوية على القوة العسكرية وبناء على تدمير الزاوية الدلائية وتغريب محمد الحاج الى تلمسان ، ومن ثم السيطرة على البغ .

لم تترك الدولة العلوية حسب دراغ للزوايا من اختيار سوى الخضوع أو النفي والقتل ، ويدلل إضافة إلى لحظة التأسيس بلحظة حكم المولى إسماعيل . فهذا الأخيربقدر ما سيتعامل مع الشرفاء الأدارسة بنوع من الليونة واللطف والاعتبار ، سيمتحن على شاكلة محمد الشيخ السعدي شيوخ الزوايا مثلما سيفرض عليهم الحصول على ترخيص للقيام بتحركاتهم . سيصار المولى إسماعيل الزاوية الناصرية رغم قوتها وسيحارب زاويت آل مهاوش وكذا زاوية أحنصال مثلما سيقرب إلى دائرته الزاوية الوزانية ، وسيراقب العلماء . وقد دونت رسالة العالم الحسن اليوسي الموجهة إلى السلطان مولاي إسماعيل بلهجتها العنيفة ما سماه الراحل بول باسكون سيرورة المخزنة التي مارستها الدولة العلوية في حق الزوايا والعلماء .

تجد أطروحة بول باسكون حول القيدلية جدرها في مؤلف دراغ . ففي سياق رصده لعلاقة الزوايا بالمخزن يسجل دراغ الكيفية التي سيتحول بها شيخ الزاوية الوزانية إلى عامل على منطقة توات بالمنطقة الشرقية للمغرب . مجسدا بذلك جدلية الدولة العلوية في اعتمادها على متغيرة الشرف ودفع الشرف المنافس لها إلى الحقل الزمنى السياسي والذي ليس غير حقل الخدمة والمخزنة .

إلى جانب ذلك يحتضن مؤلف جورج دراغ معطيات غير مسبوقة عن الجانب التنظيمي للزوايا ومبادئها الطرقية وفروعها وأدوارها السياسية ونوعيات صلاتها بالمخزن وشجراتها السلالية وهو ما يمكن اعتباره مدخلا ضروريا ومؤسسا لكتابة جنيالوجيا عامة للشرف في المجتمع المغربي بكل تراتباته ورهاناته السياسية والقداسية .

روجي لوتورنو ونخبة أهل فاس

روجي لوتورنو من أكبر الكتاب الفرنسين المتخصصين في مدينة فاس . لقد صادفته فاس مع نهاية العشرينات من القرن الماضي واستقر بها . تعلم اللغتين العربية الفصحى والدارجة واحتك بأهلها شبابا وشيوخا . كان يدرس الفرنسية لأبناء المدينة وهوما سمح له بمعرفة أفكارهم وسلوكاتهم . خلف العديد من المؤلفات هم بعضها التطور السياسي لإفريقيا الشمالية وهم آخرها الإسلام المعاصر ، لكن يبقى مؤلف فاس قبل الحماية أهمها وأكثرها انتشارا . لقد عرف هذا

الكتاب طبعات متعددة امتدت من نهاية الأربعينات إلى حدود بداية التسعينات من القرن الماضي .

يقول لوتورنو مقدما لكتابه : إن جميع المؤلفين الأجانب الذين كتبوا عن فاس أذهلوا من شدة نظمها الاجتماعية والأسروية الشيء الذي حدا بهم إلى أن يتناولوا بالتفصيل في غالب الأحيان ادابا كانت تظهر لهم طريفة . ذلك ما حصل لليون الإفريقي الدي خصص عروضا مطولة للزفاف والعادات والأهلية للأرستقراطية الفاسية وفي فترة أقرب إلينا ألف الإخوان طارو مجلدا كاملا ، لا يتسع المجال هنا لمناقشة استنتاجاتهما العامة فيه ، مخصصا لأسلوب معيشة أهل فاس .

أما أنا فسأحاول تركيب عدد كثير من العناصر المشتتة مضيفا إليها عند الاقتضاء ثمرة عشر سنوات من الملاحظة الشخصية ومن اتصالات تكاد تكون يومية .

على امتداد فصول عديدة يقدم لوتورنو فاس التي عرفها بكل أبعادها الحياتية اليومية والثقافية الدينية والطقوسية والاقتصادية والسياسية والتعليمية كل ذلك معزز بالصور والرسومات العمرانية .

في الفصل الأول المعنون بالثروات والطبقات الاجتماعية يقدم لوتورنو التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية لأهل فاس . وينبه قارئه مند البدئ بأنه إذا كانت الثروات المادية تلعب دورا مهما في الصرح الاجتماعي بفاس نظرا لامتداداتها في الحياة الاقتصادية ، فانها ليست

العامل الوحيد للتمييز حيث أن الدين والمعرفة المرتبطين كل الارتباط يحتلان مكانة من الدرجة الأولى في حياة الحاضرة ويشاركان في تشكيل النخبة الفاسية .

اعتمد الفاسيون في ثرواتهم على التجارة بالدرجة الأولى . فالغنى بفاس يقول لوتورنو يكاد يكون من أصل تجاري . فإذا ما استثنينا بعض الأسر الشريفة كالوزانيين الذين ظلوا ينتفعون بأوقاف وعقارات أجدادهم ، فإن جميع الأسر المثرية بالمدينة كانت مدينة برخائها للتجارة .

وبما أن فاس ليست مدينة التجارة فحسب ،فإن تشكلها الاجتماعي الطبقي لم يقتصر على ذلك . فإلى جانب الثروة هنالك روابط الأسرة والثقافة والوظيفة الاجتماعية والصفة الدينية .

تشكلت فاس اجتماعيا من الشرفاء الذين كانت أسرهم تتميز بنفود معنوي يجعلهم خارج حقل العامة . وقد توزع هؤلاء حسب نوع من التراتب . يشغل قمته الأدارسة الحسنيون ، من ادارسة أقحاح وعلميون ودباغيون وكتانيون ووزانيون وعلويون ثم الحسينيون من مثل الصقليون والعراقيون . وإلى جانب الشرفاء هنالك العلماء والشخصيات الدينية . وعلى الرغم من ان الشرفاء يتفوقون على العلماء بعنصر الشرف والبركة فإن هؤلاء ظلوا يحظون بتقدير كبير من ساكنة المدينة . إنهم رواد القرويين والمدارس والكتاتيب ومشرعو الفتاوى المتعلقة بأمور التجارة والشريعة والحياة اليومية .لم يكن التجار

والعلماء والشرفاء وحدهم بفاس بل كان الى جوارهم من هم أدنى منهم في سلم التراتب من مثل موطفي المخزن بكل تراتباتهم وباقي الساكنة المشكلة من أصحاب الدكاكين والصناع والحرفيين والموظفين الصغار والذين شكلوا احتياطي النخبة الفاسية .

فاس في حياتها العائلية والدينية والعمرانية والطقوسية هي التي أثتت كتاب لوتورنو الى حدود فترة الحماية وبعده سيلاحق لوتورنو التغيرات التي ستطرأ علي المدينة من جراء الحضور الفرنسي .

يقول ، تغيرت مدينة فاس كثيرا من جراء الاتصال المباشر بالحضارة الأوروبية . وقد لامس التغيير حسب نفس المؤلف عمران المدينة وساكنتها وعاداتها واقتصادها وعلاقاتها الاجتماعية وبنياتها التعليمية لكن الشيء الذي سيحافظ عليه أهل فاس هو أنهم سيتكيفون وبذكاء كبير مع هاته التغيرات . يقول لوتورنو : ونظرا لكون فاس أثعت أكثر بكثير مما كانت عليه قبل الحماية : سواء في المخزن بالرباط او في التجارة بالبيضاء ، فإن أهل فاس يحتلون وظائف دينية وإدارية في عدة نقط من المملكة الشريفة متكيفين بسرعة أقوياء بثقافتهم الإسلامية التقليدية وتعليمهم العصري ، حادقين في استغلال الوضعيات الطارئة وحياكة المناورات وهم ميالون الى ان يشكلوا الأغلبية اليوم في نخبة مغرب اليوم . انهم ليسوا محبوبين في كل مكان لكنهم ينجحون دائما في ان يفرضوا انفسهم بفضل روح مبادرتهم ومثابرتهم وأحيانا بفضل الاحترام والخوف الذين يحدثونها حولهم .

شارل لوكور . . . المغاربة بين الطقس والأداة

شارل لوكور من الباحثين الشاردين داخل التقليد السوسيولوجي الفرنسي . من بين أعماله الميدانية المهمة والتي تخص المغاربة البحث الذي أنجزه حول مدينة أزمور والدي قدم فيه التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي ستعرفها ازمور مند بداية الاحتلال الفرنسي . معتمدا في دلك على كل الوثائق التي جمعتها البعثة العلمية تحت ادارة ميشو بللير وكذا على عمله الميداني المباشر . لقد صمم شارل لوكور العزم بدءا على البحث في الحفل المغربي لكنه بعد ذلك سيغير مساره باتجاه بحثه الحالي .

ليس من باب الصدفة أن يقدم اسم من حجم جورج بلانديي لهدا المؤلف الدي يحمل عنوان الطقس والأداة ، فصاحبه لا يساير تقليد سابقيه ومعاصريه في شيء لا من حيث اختياراته المنهجية أو من حيث زاوية تحليله للموضوع وطبيعة تصوره للمغاربة . وعلى الرغم من أن البحث تم في فترة الثلاثينات من القرن الماضي ، يقول بلانديي ،لم يستهلك لوكور النظرة الاستعمارية مثلما لم يسخر بحثه لأجل فرنسيي الميتروبول أو لاجل المؤسسة العسكرية والسياسية . في الأمر غرابة وغموض ، لقد انتقد لوكور فرنسا وفي الان نفسه احدث ثورة في الدين الذي لليوطي على كل الباحثين الفرنسيين . طريقته في ذلك الانخراط الذاتي والنظري في تأسيس معرفة متخلصة من الأحكام المسبقة تجاه المغاربة الأهالي . وكذا من الدوغمائية المنهجية

للنزعة التطورية التي كانت سائدة آنذاك سيبرز شارل لوكور حسب بلانديي ، القوة الفعلية والإجرائية للطقوس في كل المجتمعات . وهو ما يعتبر تمهيدا لثورة داخل حقل العلوم الاجتماعية .

في تقديمه لكتابه يعتبر ش .لوكور بأن عمله هو عصارة لعشرة سنوات من الحياة بإفريقيا (الكتاب يضم جزءا من البحث في منطقة التبستي جنوب الصحراء قبل أن ينتقل لرصد مدينة أزمور) .

لقد وصلت إلى المغرب واكتشفت الاستعمار مع عشرينات القرن الماضي وكتبت حينها في إحدى الأسبوعيات بأن سياسة التهدئة التي تمارسها فرنسا لا تحمل أي طابع إنساني بل هي أضعف أنواع الشر ولذلك تجب إدانة مبدأ الاستعمار في حد ذاته . لم يكن الأمر سهلا حينها لكن شارل لوكور سيتمم انخراطه في المعركة عبر إنجاز بحثه . لقد درس لوكور المغاربة بثانوية مولاي يوسف وبعدها بالمعهد العالي للدراسات المغربية وخلال احتكاكه بطلبته المغاربة سيعيش لوكور قلقه المعرفي والوجودي : ما معنى حقيقة الذات والآخر؟ من هو المتحضر ومن ينتمي للأهالي؟ كيف يمكن للمرء أن يكتشف في ذاته تعدديتها؟ كيف له أن يعثر على الآخر فيها؟

يقول شارل لوكور : التناقض بين الإنسان كما يبدو لذاته وكما يبدو للآخرين وكذا المجهود الذي يبذله لحله هو النواة الأساسية لكتابي هذا . يبدو الإنسان لذاته مثل رجل تقنية ويبدو للآخرين مثل مبدع للطقوس . يتصور الفرنسي ذاته كرجل تقنية وينظر للمغربي

ككائن طقوسي أنها المفارقة يقول شارل لوكور التي تفسر منحي لهذا الكتاب عنوان الطقس والأداة .

مهمة السوسيولوجيا المغربية أن تفهم لغير المغاربة ما يستطيع المغاربة وحدهم فهمه . ليس هنالك علم أكثر ثورية وتناقضا من هذا . وفي مجتمع مثل المجتمع المغربي مهمة العالم هي الوعي بأهمية السوسيولوجيا التلقائية للأهالي . كيف يتبادل المغاربة التحية؟ وكيف يتناولون طعامهم ويرتدون لباسهم ويقيمون أعراسهم ويشيعون موتاهم؟ إنها الأسئلة التي تجعل من السوسيولوجي إما قادرا على الانخراط في اللعبة عبر فهم قواعدها ، أو غريبا عن ذاته وعن الآخرين . كل مجتمع يقول شارل لوكور كوميديا أو ملهاة . لكن هاته الملهاة لها معنى . إنها تحدث بلاغة الأحاسيس . ففي الحياة الاجتماعية الإحساس هو مبرر وجود الفعل الاجتماعي . حينما يتعرض أحد أصابعنا للاحتراق فإن رد الفعل الغريزي يكون هو الابتعاد عن النار ، لكن حينما نفقد قريبا فإن الحركات الدالة على الحزن والدموع وصراخ النساء والماء الذي نبلل به القبر لا تحمل قيمة في ذاتها بل إن ما يهم الألم والرحمة التي تعبر عنهما . كل حركات المغربي وتعبيراته يتداخل فيها الطقوسي مع الآداتي والنافع مع الدال والحياة الاقتصادية مع الحياة العاطفية والحفل المغربي أكبر دليل على ذلك يقول لوكور . ليست هنالك حدود أو حواجز بين الفعل والحركة النافعة وبعدها الطقوسي الحامل للإحساس والمعنى والرمز . حينما يزيل المغربي حذاءه وهو

يهم بالدخول إلى المسجد فإنه لا يهتم بالنتائج المادية لفعله هذا بل برمزية الاحترام لقدسية المكان . لذلك يقول شارل لوكور تحمل حركات وأفعال المغاربة غايتها في ذاتها . فالأمر لا يتعلق بفعاليتها المادية بل بتعبيريتها الرمزية . إنها القاعدة التي تنطبق على جميع الطقوس الصغرى مثل التحية وبلاغة التسول والكبرى مثل الأعراس والأعياد والجنائز ومواسم الحصاد والاستسقاء وعاشوراء . . .

روبير مونتاني وولادة البروليتاريا المغربية

روبير مونتاني من أهم أعلام السوسيولوجيا الكولونيالية . كان عسكريا فرنسيا ، ساهم في سن الثامنة عشرة في الحرب العالمية الأولى ثم التحق بالجيش الفرنسي المتواجد بالمغرب حيث أصبح مراقبا للطيران المدني بمهدية . لاحظ الجنرال اليوطي خبرته ومعرفته (إجازة في الفلسفة) فكلفه بمهمة أساسية هي إنجاز بحث حول أصول سلطات القياد الكبار بالجنوب المغربي وقد جاء كتابه «البربر والمخزن» جوابا عن هذا الطلب .

أسس سنة 1936 مركز الدراسات الإدارية الإسلامية العليا ومجلة افريقيا – آسيا سنة 1937 ثم عين فيما بعد مدرسا بالكوليج دي فرانس .

مع عقد الثلاثينيات من القرن الماضي سيعرف المغرب بروز ظاهرة جديدة هي ظاهرة الهجرة من القرى نحو المدن ، وستشكل هاته الظاهرة

بتزايدها تهديدا للأمن الكولونيالي ، وبسبب ذلك ولأجل تلافي المخاطر غير المتوقعة لهاته الظاهرة ستعمل السلطات الاستعمارية على تنظيم بحث ميداني يخص الظاهرة عموما والبروليتاريا خصوصا . سينجز هذا البحث بين سنة الف وتسعمائة وخمسة وأربعين وثمانية وأربعين وذلك بمعهد الدراسات الإدارية الإسلامية العليا وتحت إشراف روبير مونتاني .

مع حرب الريف سيعلن مونطاني بأن أمر معالجتها يجب أن يعتمد إلى جانب الأسلوب العسكري الأسلوب السياسي الذي يفترض معرفة كاملة بالقبائل والقوى الاجتماعية التي تعبر عنها . وبسبب ذلك كان مونتاني من بين المتفاوضين مع محمد عبد الكريم الخطابي . أن معرفة مونطاني بتطورات المغرب والعالم الاسلامي ستسمح له ولو بعد تهدئة المغرب أن يظل أحد أعمدة السياسة العلمية الاستعمارية . فقد كان هدف إنشاء معهد الدراسات الإدارية الإسلامية العليا هو التنسيق بين جميع الإدارات الموجودة بإفريقيا الشمالية وتمكينها من تكوين إداري متين . فزمن تأسيس المعهد هو زمن يقظة الحركات التحررية بإفريقيا الشمالية ومهمة المعهد هي تمكين الموظفين الإداريين والعسكريين من تكوين سياسي شامل حول التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية للبلد الذي يمارسون به مهامهم . هكذا سيهتم المعهد بمجموع العالم العربي الإسلامي عكس المعهد العالي للدراسات المغربية الذي ظل اهتمامه منصبا على المغرب . لقد افتتح

المعهد نشاطه بإنجاز دراسات عديدة همت المجال القروي المغربي وشغل ضمن أحضانه بحثة وازنين من مثل جاك بيرك وأندري آدم . فضمنه سيتمكن بيرك من دراسة وتفسير السياسة الفلاحية ، مثلما في سياقه سيتم إنجاز البحث الضخم عن البروليتاريا المغربية . لقد تم هذا البحث الميداني في إطار مسلك أو شعبة السوسيولوجيا التابعة لوزارة الداخلية وذلك بالتعاون مع المراقبين العسكريين والمدنيين والباطرونا الفرنسية والمتطوعين من البحاثة . ولم تشارك في إنجازه لا النخبة المغربية أو النقابات .

جمع المعهد تحت إشراف ر . مونطاني كل المعطيات الميدانية المحصل عليها وتم تحريرها في شكل تقرير مفصل متضمن لنتائجها وخلاصاتها . وسيتم إصداره في كتاب حمل عنوان ميلا د البروليتاريا المغربية .

لقد عرف عقد الثلاثينات حسب مونطاني تزايد الهجرة وتكاثر عدد اليد العاملة المغربية وكذا تنامي درجات البؤس الاجتماعي خصوصا في مدن الصفيح العمالية وهو ما فرض ضرورة إنجاز هذا البحث لأجل معرفة وفهم وتفسير نمط العيش الجديد وصعوباته وبعض نتائجه الجديدة كخوض الإضرابات والاحتجاجات . وكذا ضبط الشروط الكامنة وراء هاته القوة الاجتماعية الجديدة .

سيتمحور الجزء الأول من البحث حول الهجرة القروية وسيكون الهدف من وراء ذلك هو الجواب عن السؤال : كيف يمكن تفسير حركة

الهجرة وارتفاع وتيرتها؟

سيسجل البحث تفكك نمط العيش القروي العتيق ومعه تفكك النظام والبنيات الاجتماعية ذات الأساس القبلي . وبعدها سيرجع الظاهرة الى عاملين أساسين :

تمثل الأول في الجفاف الذي عرفته البلاد وشح التساقطات المطرية الذي ستعيشه القرى والذي سيدفع الساكنة إلى الهجرة نحو الشمال ومن القرى الى المدن . وقد نعت مونطاني هاته الحركة بأنها تشبه حركة الجراد وهو يصعد شمالا مدفوعا بغريزته الطبيعية .

أما الثاني فيرجعه البحث إلى استبداد القواد الكبار واتساع الاقتصاد المالي وتجريد الفلاحين من أراضيهم من طرف الفرنسيين . وسيادة المقاولات والشركات التجارية بالمدن والتي سترفع وتيرة النماء الاقتصادي والاجتماعي .

وقد خلصت الدراسة إلى خلاصات تهدف فرملة وتيرة الهجرة وكذا الحركة العمالية التي تتولد عنها ، من بينها ضرورة فرض النظام وفرض سيادة المخزن في المدن وإعادة تشكيل الخريطة القبلية بالمغرب ، وذلك عبر تهجير القبائل المتضررة والفقيرة إلى جوار القبائل الغنية .

لقد شكل البحث في أسس ولادة البروليتاريا المغربية على الرغم من كل ما يمكن للباحث أن يسجله من مؤاخذات حول الأحكام الايديولوجية والاستعمارية والمدن المستهدفة بالبحث . . . بداية ظهور سوسيولوجيا جديدة لا تستقي موضوعها من مغرب الزاوية والقبيلة

والمخزن بل من ظواهر راهنة وحديثة .

روبير مونطاني: تحولات المجتمع المغربي

تعتبر السوسيولوجيا الكولونيالية معرفة سوسيولوجية بالمعنى الكامل للكلمة . أنها معرفة مجهزة منهجيا ونظريا وميدانيا . وهي معرفة كولونيالية من حيث أن ما تحكم فيه ليس فهم المجتمع المغربي وضبط الياته وتحولاته فقط بل فهمه لأجل التحكم فيه من طرف المؤسسة السياسية والعسكرية الاستعماريتين . ضمن هدا السياق يمكن القول بان المجتمعات التي تعيش وضعيات استعمارية يتحكم فيها نوعان من الصراع : صراع القوة وصراع المعنى ، الصراع السياسي والعسكري الخاضع لمنطق الغلبة والصراع المعرفي الخاضع لامتلاك أدوات ومؤسسات البحث العلمي . يعتبر عبد الله العروي روبير مونطاني من أهم علماء السوسيولوجيا الكولونيالية . فعلى الرغم من الانتقادات التي وجهت لنظريته ، يقول العروي ، تظل أطروحته الأطروحة الوحيدة بالمعنى الدقيق للمصطلح طيلة الفترة الاستعمارية ، حيث سيبلور نظرية تفسيرية عامة للمجتمع الافريقي الشمالي . فإلى جانب أطروحته حول الكشف عن أصول سلطات القواد الكبار بالجنوب المغربي وبحثه في شروط ولادة البروليتاريا المغربية سيختم هذا العالم اهتمامه بالمجتمع المغربي بكتاب هام جدا عنونه بثورة في المغرب . وضمنه يرصد التحولات الكبرى التي سيعرفها المغرب طيلة

الفترة الاستعمارية وإلى حدود النصف الأول من خمسينيات القرن الماضي .

يتكون الكتاب من مقدمة وخلاصة وثلاثة فصول :

1 : مظاهر ثلاث :

القبائل ،

المدن ،

المخزن .

2 :رجالات ثلاث :

ليوطي

عبد الكريم الخطابي

سيدي محمد بن يوسف

3 :أزمات ثلاث :

أزمة البروليتارياالحضرية

أزمة الشباب

أزمة الدولة .

يشكل الفصل الثالث في مقامنا هذا جوهر المقصود . فضمنه يوضح مونطاني الأزمات الكبرى التي ستلاحق المغرب ليس فقط الى ما بعد الاستقلال بل إلى أيامنا هاته . فبسبب قانون تحفيظ الأراضي الذي فرضته فرنسا سيفقد الفلاحون الصغار أراضيهم ليصبحوا عمالا في أراضي القائد والباشا وبما أن بطش هؤلاء يقول مونطاني كان شديدا

فقد اضطر جلهم إلى الهجرة الى المراكز الحضرية . وبسبب ذلك ستعرف الحواضراتساعا سيدعمه تنامي التصنيع وتوافد المنتوجات الأوروبية المصنعة الأمر الذي سيؤدي الى تقهقر الهياكل الاقتصادية من صناعة حرفية وتقليدية وكذا التجارة المرتبطة بها . من نتائج كل ذلك بروز ظواهر جديدة لم يعرفها المغرب من قبل :

انتشار ظاهرة النساء الخادمات ببيوت الأوروبيين . بروز ظاهرة المدن الصفيحية ، انتشار ظاهرة الجريمة الحضرية ، ارتفاع نسبة الطلاق ، بروز ظاهرة الحرف الهامشية ، انخفاض المستوى المعيشي ، تنامي ظاهرة البطالة بالمدن . . .

سيعرف المغرب إلى جانب ذلك ولأول مرة في تاريخه بروز ظاهرة الشباب بما هي ظاهرة حضرية بامتياز . أنها حسب مونطاني نتاج لعدم تكيف الأجيال الجديدة مع الدولة العصرية التي شيدها الفرنسيون . وسيساهم التعليم الموزع بين العصري والأصيل والعسكري والحرفي في ظهور سلوكات شبابية جديدة . فرواد التعليم الأصيل سيصفون رواد التعليم العصري بالجحود وهؤلاء سيصفونهم بالجمود والتخلف . وستختلف قيمهم وسلوكاتهم تجاه الأسرة والمجتمع . مثلما ستتمايز أوضاعهم الاجتماعية . فخريجو التعليم الأصيل سيعانون من ندرة فرص العمل عكس أقرانهم في التعليم العسكري والعصري . وبسبب ذلك سيلجأ الكثير من الشباب إلى تنظيم أنفسهم في جمعيات وتنظيم أنشطة ثقافية والانخراط في تنظيمات الحركة الوطنية . إلى

جانب ذلك يقول مونطاني ستعمل فرنسا على تهديم الأسس التقليدية للدولة المغربية . وذلك عبر تغيير البنيات الإدارية في المدن والقرى . وقد تمكنت فرنسا من ذلك بفضل ارتكازها على عاملين أساسين :

تمثل الأول في اعتمادها على الأعيان وشبكات الوسائطية التي كان المخزن يستخدمها في تفكيك البنيات الإدارية للقرية والمدينة وثانيها تفكيك البنيات الدينية بفاعليها ومؤسساتها . وهو ما عرف بالسياسة الإسلامية للجنرال اليوطي .

إن اعتماد سلطة الحماية على ترسيخ جهاز إداري جديد إلى جانب إدارة المخزن واستثمار الأعيان وبعض العلماء وشيوخ الزوايا في توسيع مجال سيطرتها ستكون نتيجته كما يقول عبد الله العروي هو أن مغرب ما بعد الاستعمار سيجد نفسه ضمن جهاز مخزني عتيق يعج بحاشية من أعيان القصر والشخصيات الدينية ، يتعايش مع جهاز إداري عصري لا يعرف أحد من المغاربة كيفية تسييره باستثناء الفرنسيين بطبيعة الحال .

جاك بيرك والقرية المغربية: ميلاد الأعيان الجدد

ولد جاك بيرك بالجزائر وهو ما سمح له بالتمتع على شاكلة والده بحساسية خاصة تجاه المغاربيين عموما والمغاربة بشكل خاص . حساسية سيعتبرها أندري آدم سر وأس كل حدوسه العلمية . وقد مكنته ثقافته اللغوية والقانونية والتاريخية والسوسيولوجية ، وكذا

وظيفته كمراقب مدني بالمزاوجة بين الحياة والبحث العلمي والذي هو مطمح كل باحث علمي .

حصل بيرك معرفة عميقة بالقانون الشرعي مثلما اعتبرت معرفته بالعرف أعمق . لقد خبره عبر المعايشة اليومية للناس مثلما نقب عليه في الوثائق المتوفرة بمكتبات الزوايا ورفوف المحاكم وخزانات الأعيان الخاصة . يعتبر البعض جاك بيرك مؤرخا أكثر منه سوسيولوجي ، لكن محتويات أبحاثه الميدانية والنظرية التحليلية تركب أكثر من بعد واحد . لقد تمكن بعمق تحليله وإنصاته لنبض المجتمع المغربي أن يلامس ما سماه باستمرارية النسيج الاجتماعي المغربي ، ليس على مستوى الزمان فقط ، بل على مستوى المكان أيضا . أن الجماعة الاجتماعية حسب بيرك شبيهة بالكائن الحي الذي يجب الإمساك به في تجدره الحياتي والاجتماعي والزمني . واذا ما كان للماضي ثقله في كل المجتمعات التقليدية فإن تملك الحاضر بكل تحولاته حسب بيرك يتطلب فك ألغاز ذاك الثقل وحل مستغلقاته .

لم يعتمد بيرك في كل أبحاثه على وساطة المترجم ، فقد كان ملما بلغات البلد المكتوبة والشفوية ، وهو ما سمح له بالعبور المباشر نحو النصوص الاسلامية الكلاسيكية والنصوص التاريخية المغربية وما دراسته الأصيلة عن اليوسي التي حلل فيها علاقة العلماء بالسلطة المركزية وكذا التداخل الحاصل في الثقافة المغربية بين الأمازيغية والعربية والمحلي القبلي مع الكوني الاسلامي سوى دليل على ذلك .

فرضت بحوث بيرك على كل الباحثين المجايلين له والبعديين احترام تعقد وتركيبة المجتمع المغربي . لم يعد المغرب مجتمعا بسيطا وغرائبيا كما رسمته رحلات الإيثنوغرافيين بل نسيجا بالغ التعقيد والتركيب . لم يمنع حس بيرك الديكارتي بالنظام والبداهة والوضوح بالمغامرة العلمية وذلك عبر الاستعانة بحدوساته وإشراقاته . وما يثير في أطروحته الاساسية حول البنيات الاجتماعية للأطلس الكبير ليس فقط صرامته المنهجية وعمقه العلمي بل أيضا رفضه اعتماد التفسير المعتمد على العامل الوحيد وابعاده للعلية الميكانيكية التبسيطية ، وكانت نتيجة ذلك إرساء لمعرفة بالواقع القروي الاجتماعي في كل غناه وانفتاحاته ، وحينما كان يحس بتعب التفسير العلمي يلجأ إلى المعنى الشاعري الذي وحده حسب بيرك يقدر على فك وسبر أغوار الغموض الواضح للحياة ، وو حل التركيبة الخيميائية للفعل الاجتماعي وكذا التعبير عنهما من دون أن يبدد عطرهما .

اشتغل بيرك في السوسيولوجيا والتاريخ والثقافة والموسيقى لدرجة يمكن معها القول أنه كان مؤسسا لفروع سوسيولوجية متعددة وعلى رأسها سوسيولوجيا الثقافة . سيختار بيرك البحث في قبيلة سكساوة بالأطلس الكبير ، قبيلة لم تخضع لسلطات الحماية قبل نهاية العشرينات من القرن الماضي ، والأمر له دلالة كبرى وقد كان مقصود البحث رصد خلاصات روبير مونطاني حول تشبث القبيلة البربرية باستقلالها وحريتها ودفاعها عن نفسها بشراسة وكذا

تفضيلها للانعزال الجغرافي . لقد أنجز بيرك بحثه ولم يعثر على تلك الخصوصيات التي دونها مونطاني في كتابه عن البربر والمخزن .

لم تبد القبيلة لجاك بيرك على شاكلة مونطاني بوصفها أصغر وحدة اجتماعية طبيعية بل سيكشف عن وحدة اجتماعية أصغر مثلتها العائلة . وسيذهب أبعد من ذلك ليخلص إلى أن العائلة من حيث هي تنظيم اجتماعي تسلك مسارات متعارضة مع القبيلة وهو الأمر الدي سيدفعه لإرساء إحدى خلاصاته المهمة بخصوص المجتمع المغربي . خلاصة تتمحور حول مقولة المغرب المميز بطابعه المركب لتطورات متباينة الاتجاهات . تطورات وإن كانت متباينة الاتجاهات فإنها لا تجعل من المجتمع عبارة عن وحدات منقسمة بل تنتظم في ما سماه بيرك بالنسيج المستمر والمركب .

سيتجه بيرك بدراسته المميزة للبنيات الاجتماعية للقبيلة إلى إحداث اهتمام سوسيولوجي جديد ينهل موضوعه من أصول الأسماء والأماكن أو ما يعرف بالطوبونيمي . وهو ما جعل عبد الله العروي يعتبره مؤسس سوسيولوجيا الأسماء والتي بفضل الحفر في أصول الأسماء بالكشف عن تعارضات وتناقضات المجتمع .

يجسد العزيب من حيث هو اسم ومفهوم أداء موضوعات بيرك الأساسية . فوجوده جاء نتيجة للإستيلاء على الأرض بالقوة أو عبر الهدايا المقدمة من طرف الفلاحين للشرفاء مقابل تقديم الحماية لهم أو التقرب اليهم والنهل من بركاتهم . أما العزابة فهم الفلاحون المشتغلون

في هاته الأراضي مقابل جزء من المحصول . يرتبط العزابة بمالك العزيب برابطة التبعية الذي يجعل العزاب شخصا لا يتمتع بحريته . فالشريف بإمكانه إعارة عزابيه إلى شريف آخر قصد خدمته . يخضع العزاب وأبناؤه لسلطان الشريف بشكل كامل وعليهم أن يكونوا في خدمته الكاملة إضافة الى تقديمهم له العشور والزكاة وأضحية العيد وتنظيم طقس التويزة مع انتهاء كل موسم فلاحي .

تكشف سوسيولوجيا بيرك التداخل الكامل بين الاقتصادي والقداسي وكيف تتحول رمزية القداسة إلى مصدر لتبرير وتوسيع حقل سيادة الشرف ومعه حقل الملكية الخاصة . لم يتوقف بيرك عند هذا المستوى بل سيكشف عن الكيفية التي سيخلخل بها النظام الرأسمالي الوافد كل البنيات التقليدية . لقد أصدرت الحماية ظهيرا جديدا ينص على التحفيظ العقاري للأراضي . ولكي يتجنب الشرفاء ضياع ممتلكاتهم والتي كان معظمها إما هدايا المخزن أو الفلاحين الصغار ، فقد عملوا على تحفيظ أراضيهم وهو ما سيفقد العزابين ما كا نوا يحصلون عليه مقابل عملهم وخدمتهم للشريف وسيتحولون إثر ذلك إلى عمال فلاحيين يتقاضون أجرا مقابل خدماتهم . أو إلى مشاريع مهاجرين إلى المدن الجديدة . ستكتسب الأرض قيمتها الاقتصادية والشرف والقداسة لن تعودا مصدرا للاغتناء العقاري . إنها التحولات الكبرى والتي ستغير التشكيلة الاجتماعية للقرية المغربية التي ستضيف إلى مكوناتها التقليدية من مخزن بأطره وإدارييه

والشرفاء بطرقهم وزواياهم فئة جديدة هي فئة الأعيان الجدد .

بول باسكون . . طبيعة المجتمع المغربي المزيجة

بول باسكون من أبز أعمدة السوسيولوجيا المغربية ، سواء في شقها الميداني أو التعليمي والتنظيري . شكل العمل معه والاحتكاك به فرصة ذهبية لكثير من الباحثين ورجالات السياسة : التهامي الخياري ، الحليمي ، محمد طوزي ، محمد الناجي ، عبد الحي الديوري ، المكي بن الطاهر . . .

ولد باسكون بمدينة فاس وبالضبط في أحوازها القريبة سنة 1932م من أبوين فرنسيين وحصل على الجنسية المغربية سنة 1964م . وبمجرد حصول ذلك سيعين على رأس مكتب الحوز . يقول باسكون :عندما كنت مديرا لمكتب الحوز كان يصلني مهندسون جرى تكوينهم بفرنسا ولم يكونوا على معرفة بحقائق البلاد . لذلك كان ينبغي أن يكونوا بالمغرب وأن يقضوا في رأيي ستة أشهر سنويا بالبادية لكي يتعرفوا عليها بالفعل . وأدخلت علم الاجتماع القروي المغربي إلى المعهد قبل أن التحق به وحين التحقت به بصفة نهائية اقترحت إنشاء دورات يذهب فيها الطلبة للعيش في القرى مع سكانها متعرفين على جميع الأنشطة القروية ومنفتحين على قضية التحول الاجتماعي وهو أمر لم يكن يحصل في السابق إذ كانوا يركزون خاصة على الضيعات العصرية ويهيأون لتسيير المنشآت العمومية .

في سياق إقامته بمراكش سينجز باسكون أطروحة لنيل دكتوراه الدولة وذلك حول موضوع : حوز مراكش : التاريخ الاجتماعي والهياكل الزراعية . وستصدر في مجلدين سنة 1983م . التحق بول باسكون للتدريس بمعهد الحسن الثاني للزراعة والبيطرة سنة 1970 م وظل به الى حدود آخر خطوة في حياته . يقول بهذا الخصوص : أنا مدرس بمعهد للزراعة والبيطرة ، ويقوم تدريسي على علم الاجتماع القروي ، وأنا أتابع أبحاثا شخصية في الميدان وأغذي دروسي من هذه الأبحاث وأحاول رفقة بعض الباحثين الآخرين خلق شروط مقاربة شخصية أفضل لمشاكل البادية يقوم بها طلبتي وزملائي وذلك بتنظيم فترات تدريب ميداني في إطار المعهد . ويوفر معهد الحسن الثاني للزراعة والبيطرة من وجهة النظر هذه شروطا نادرة في بلد كالمغرب . ففي إمكان الطلبة فعلا أن يقيموا لفترات طويلة وعديدة بين المزارعين بكل حرية وفي غيبة أي مشاكل إدارية . أننا لم نتمكن بعد من استخلاص كل الفوائد التربوية البشرية من مثل هذه الوضعية لكننا نتقدم كما أظن في هذا الاتجاه .

لم تكن حياة بول باسكون سهلة ويسيرة .لقد قضى طفولته بالبادية المغربية بعيدا عن معاشرة أهل وطنه . مثلما لم يعثر على اختياره الجامعي منذ البداية . لقد حصل على إجازته في العلوم التجريبية وبعدها سيغير مساره نحو السوسيولوجيا . اختياره للجنسية المغربية وطلبه لها سيستغرق الرد عليه أكثر من أربع سنوات . طيلة حياته

العلمية بالمغرب تعرض لأكثر من نقد جارح ومشكك في مغربيته ونزاهة مقاصده مثلما لم تخل وزارة الداخلية على عهد البصري من زرع الأشواك أمام خطواته . سنة 1976م سيختفي فجاة ولداه ندين وجيل ، وسيبحث عنهما بول باسكون لمدة تسع سنوات دون نتيجة . فالسيناريوالمقدم من الجهات الرسمية هو أن الأبناء اختطفوا من طرف عناصر البوليساريو . وبعد انقضاء التسع السنين من البحث سيعثر على الطفلين مقتولين في ظروف غامضة . ونفس الظروف الغامضة هي التي ستعصف ببول باسكون يوم 22 أبريل من سنة 1985م رفقة صديقه عاريف ، وقد لمح الراحل الخطيبي لغموض حادثة السير تلك في روايته ثلاثية الرباط بسخرية كبيرة قائلا : يشبه المغرب صندوق العجائب ، حادثة سير تقع في الصحراء . . .؟؟

لمع اسم باسكون في السوسيولوجيا القروية وشكلت إعادة قراءتة للمجتمع المغربي أطروحته الأساسية والتي لا زالت تستهلك علنا وخفية من طرف باحثين كثر . المجتمع المغربي ليس مجتمعا انقساميا أو فيوداليا او قيدليا أو رأسماليا ، إنه كل مركب من هذه النماذج المجتمعية . ليس المجتمع المغربي مجتمعا انتقاليا بل إنه مجتمع مركب . يقول بول باسكون : في المجتمعات المماثلة للمجتمع المغربي والتي لم تكن تمتلك مشروعا مجتمعيا خاصا بها يمكنها من صنع التراضي العام ويوجهها الى سبل الخروج من التبعية ،لم يكن النموذج الرأسمالي هو السائد والمهيمن فقط بل ثمة علاوة على ذلك شيء

آخر : هنالك نماذج عدة من التنظيمات الاجتماعية تتصارع داخل المجتمع . لسنا أمام مجتمع معين بل أمام مظاهر جزئية من مجتمعات عديدة تتعايش أحيانا في نفس اللحظة ونفس المكان هكذا ينتمي فرد معين وحسب سلوكاته المختلفة إلى عدة مجتمعات . والدلائل على ذلك بسيطة ويومية : مجموعة من الفلاحين لهم الحق في الأراضي الجماعية وتذهب نساؤهم يوم العنصرة لسكب السوائل على قبور الأجداد ويطلبون من خماسيهم أن يأتوهم بالبغلة صباحا ثم يتمنطقون بالخناجر ويذهبون إلى المكتب ليطلبوا القرض الفلاحي جماعيا . ألا يمكن لنا بدلا من تحديدهم تحديدا تقريبيا عبرالسن والسلالة والمنطقة ردهم الى تعايش نماذج اجتماعية متعددة وهي بالمناسبة خمس نماذج . يعين بول باسكون في مقام آخر النماذج الخمس التي تعتمل داخل المجتمع المغربي تارة بالصراع وأخرى بالتعايش . هنالك نموذج المجتمع المبني على القرابة العصبية وهو ما يعرف بالمجتمع البطريركي أوالأبوي ونمودج المجتمع المبني على التضامن الايديولوجي ذي الصبغة الدينية والصوفية . أنه مجتمع الزوايا والطرق . ثم نموذج المجتمع المبني على التضامن السياسي الإقليمي وهو مجتمع القبيلة ونموذج المجتمع المبني على الوصاية الفيودالية وهو مجتمع القواد ، وأخيرا نموذج المجتمع المبني على التضامن التقني والصناعي وهو مجتمع الرأسمال . يقول باسكون أن التضامن الأول يهيمن على الأشكال الأخرى هيمنة واضحة أما الثاني فلقد كان دائما عابرا ويصعب الاحتفاظ به . ولعلنا نستطيع

كتابة تاريخ للمغرب بما في ذلك العصر الحديث بوصفه سلسلة من الهجومات التي تشنها النماذج المجتمعية المختلفة (اللهوتية والقبلية والقائدية والصناعية) على المجتمع البطريركي الذي لم يترك الميدان بعد تركا نهائيا .

البغ . . قدسية وتسامح سيدي أحمد موسى

حكاية بول باسكون مع مخبره الحسين ابن الأسرة الإيليغية المتزعمة للأسرة الشريفة ليست بالبسيطة على المستوى الإبستيمولوجي . أن تصادف مخبرا مثله يعرف كينيث براون وما كتبه جيستينار عن البغ ويدرك ماهية العلم السوسيولوجي ويلم بما كتبه المختار السوسي بل ويلعب دور المخبر الذي يوجه الباحث العالم بحكم استوائه على عرش الوثيقة التي لا يمكن للباحث في العلوم الاجتماعية إلا أن يحصل عليها ولو باختراق قيم وأخلاقيات البحث العلمي بل وفي كثير من الأحيان تشغيل الإغراء المالي (الرشوة) . صدفة وحظ بول باسكون أو عدم يقظته وحذره الكافيين كما يقول في تقديمه لكتابه حول البغ ، سيجعلان من بحثه هذا ترميقا علميا بالمعنى الذي يمنحه كلود ليفي ستراوس لهاته الكلمة . فعوض الكشف عن الطبيعة المركبة بدقة للمجتمع الإيليغي سيقدم بحثا مركبا من حيث تيماته ومن المشاركون فيه (الباحث عاريف ومحمد طوزي وشراوتير وفان دير ووستن) .

سيتكلف باسكون بما راكم البحث فيه من أمور متعلقة بالأراضي والمياه وكذا التجارة العابرة للصحراء وموت سي هاشم وسيشترك مع الآخرين في رصد المقبرة اليهودية وكذا موسم سيدي احماد موسى .

ليس هنالك باحث أو عالم يستحق التقديس مثلما ليس هنالك باحث ليس له ضحاياه . والمقصود بذلك في حقل العلوم الاجتماعية ، هو أننا حينما نختار كباحثين موضوعا للبحث الميداني ونختارموضوعا ، أننا ضمنيا نقصي مناطق ومواضيع أخرى وفي الأمر ظلما مسؤوليته يطول التفصيل فيها . حينما يكون الباحث صاحب حظوة اجتماعية وعلمية وشهرة إعلامية وثقافية فإنه يفوض جزءا من كل ذلك لموضوع بحثه ومنطقة ميدانه البحثي وبذلك يضفي الظلال على مناطق وموضوعات أخرى . لقد فازت أحواز مراكش ببحث بول باسكون فيها واشتهرت لدى الباحثين والطلبة من داخل المغرب وخارجه . لكن اليغ ستشغل موقعا أسفل في التراتب الرمزي والعلمي .

لا تقدم فصول الكتاب الأولى بول باسكون المميز مثلما تعوض ذلك برسومات ومخطوطات لا يمكن للقارئ فك شيفراتها . إلى جانب ذلك يعرض الكتاب صورا لا دلالة علمية لها في سياق البحث .

واذا ما استثنينا استحضار الحديث عن اليهود وعن مواسم سيدي احماد موسى فإن البحث بأجمعه لا يعدو أن يكون تقريرا لإعداد بحث مستقبلي . ليس في الأمر ما يقلل من قيمة بول باسكون

العلمية بل هو درس ايبيستيمولوجي يقدمه بكل أريحية بول باسكون للباحثين في العلوم الاجتماعية . أنه ما يضفي على باحث مماثل قيمة عليا .

يسلط بول باسكون الضوء على يهود اليغ وأن من باب إحياء الحديث عن موتاهم . ويخرج إلى العلن تاريخ مقبرة اليغ اليهودية من سنة 1751م الى 1955م من خلال الوثائق ويلحق دراسته هاته بالتاريخ الديموغرافي . يقدم باسكون وصديقه دانيال شراوتر إحصائيات وصور عن القبور وأعداد الموتى وقياس معدلات الارتفاع والانخفاض حسب طبيعة الأوضاع المغربية ونوعية الأمراض الفتاكة التي تعرضت لها البلاد . لقد عرفت إليغ هجرة اليهود المغاربة من إيفران وارتبطت حياتهم بالتجارة المحلية . وبحكم اتساع حضورهم التجاري سيطلبون من الإيليغيين تمكينهم من قطعة أرضية يدفنون فيها موتاهم ، هكذا سيصبح لليهود المغاربة بايليغ إضافة إلى ملاحهم مقبرة خاصة بهم . بعد هاته الدراسة سيختم الكتاب بالدراسة الجماعية عن الموسم الأكبر لسيدي احماد موسى والتي ستحاول أن ترفع التحدي مع ما سجله المختار السوسي بشكل متفرق في المعسول وبشكل مركز ووفير في اليغ . وسيتم الإعلان أن البحث وكما يتعنون هو وصف للمواسم المحلية في الجنوب الشرقي المغربي . وبالفعل فإن الأمر لا يتعدى الوصف الموزع بين محاولة البحث عن مناقب الشيخ المؤسس بعيدا عن المختار السوسي . والاشتغال على طريقة ميرسيا الياد في

رسم الحدود بين المقدس والمدنس . سواء على مستوى المكان المقدس وأحوازه الدنيوية ، أو على مستوى الزمان والأشخاص والسلوكات الاجتماعية . سيندهش باسكون ومجموعته البحثية من الاختلاط الحاصل داخل فضاء مواسم المنطقة من التداخل الحاصل بين القدسي والدنيوي أو المدنس بلغة الياد ، مثلما لن تتردد الدراسة في وضع الحدود بين المعتقدات الدينية الخالصة وتلك الباطنية أو المدنسة ، ومن ثم التساؤل عن كيفية تفسيرها وفهمها . سيطرح احتضان ضريح سيدي احماد موسى داخل حرمه شجرة سيدي شمهروش مشكلا أمام عملية الفهم وسيكون التفسير المقدم من البحث هو ان موقع الشجرة يظل مخفيا ومحجوبا داخل الحرم (الحزام القدسي للشيخ الذي يستوطن الضريح) وهو يقع على الحدود الترابية المخترقة بنجاسة الماء الحزينة للمجازر والمقاهي المجاورة؟؟

شمهروش له موقع كبير في متخيل المغاربة وحقل الزوايا مثله في ذلك مثل للا عيشة وسنعود إليه لاحقا مع باحث مغربي سماه سلطان الآخرين . لكن ما يجب تسجيله هو أن البحث حول هذا الموضوع داخل اليغ بول باسكون ومجموعة البحث التي رافقته ستجد الحل في تفسير التداخل بين المعتقدات الإسلامية وغيرها من المعتقدات في مواسم سيدي احماد موسى ، في فكرة التسامح التي تسم شيخ اليغ لكونه أجاز لشمهاروش غير الإنساني (الجني أو قاضي الجن . . .) ان يتعايش معه على تربة حرمه المقدس .

اليغ بين المختار السوسي وبول باسكون

لم تكن دراسة اليغ من طرف بول باسكون تشغل باله أو تدخل في مشروع أبحاثه ، بل إنها الصدفة وبعض من التحدي . ذات مساء من شهر دجنبر 1965م وصلت الى اليغ ، يقول باسكون ، بعد أن عبرت راجلا تازروالت . حينها لم أكن أعرف عنها سوى ما قرأته في الكتيب الصغير الذى ألفه جيستنار والذي يحمل عنوان : تازروالت : المملكة البربرية الصغيرة . وكذا مقالات نفس المؤلف الغزيرة حول نفس الموضوع المنشورة بالأرشيفات المغربية وفي هسبريس ومجلة القبائل والمدن . لقد استقبلني عند وصولي الحسين بن علي زعيم دار اليغ وكان أخوه الحسن موجوداحينها . لقد انبهرت بالمكان وعمرانه وموقعه وغمرتني الرغبة في خوض غمار البحث فيه فقد يكون سندا لتفسير وفهم جزء كبير من المغرب الجنوبي . سيترك باسكون الفكرة والرغبة تستوطن في جوفة لمدة 12سنة ودون ان يقطع الصلة والعلاقة مع الحسين وبالخصوص مع اخيه الحسن . سيعود إلى اليغ سنة 1977م بعد أن أنهى بحثه حول الحوز ، وسيجد في الحسن شخصية غير منتظرة وذكية . لقد خبر الحسن العلاقة مع أنثروبولوجيين مثل كنيث براون بل حاول الإيقاع به في فخه . الحسن يود أن يكتب تاريخ تازروالت واليغ بطريقته وبناء على تصوره ولكن بقلم أحد الباحثين المرموقين . لقد عبر لبول باسكون عن ذلك بقوله : اليغ شبيهة بامرأة حسناء ،

لكن لا رجال هنالك قادرين على تثمين هذا الجمال والحسن . بدأ الحسن غوايته بوعد باسكون أنه يمتلك من الوثائق ما لم ولا يمتلكه غيره . بل سيظهر له ذات صباح بعض الوثائق مخاطبا إياه : في هاته الوثائق معطيات تاريخية لا تتوفر في كتاب المختار السوسي : اليغ قديما وحديثا .

سيلاحق بول باسكون وثائق الحسن وسيجمعها . سيموت الحسن قبل أن يتوفر باسكون على ما يرغب فيه وما قد يجعل مؤلفه متجاوزا مؤلف المختار السوسي . أنه فخ الحسن الجديد والذي منعته الموت من لعبه باتقان كامل . سيعلق باسكون على ذلك بنوع من الحسرة الخفية وسيقول أن البحث في التاريخ الاجتماعي هو أساسا صلة بين الناس . سينجز باسكون بحثه وسيصدر مؤلفه : دار اليغ والتاريخ الاجتماعي لتازروالت ، وهو كتاب لا يعد أعمق أو أفضل أو أسوأ من اليغ المختار السوسي . أنه كتاب مغايرعن اليغ لكن لفهمه وتتميمه يفترض في كل قارئيه أن يقرأوا اولا أو ثانيا اليغ قديما وحديثا . ولنا عودة إلى اليغ بول باسكون .

اليغ المختار السوسي تاريخ من نوع خاص للمنطقة . وهو كذلك لأن صاحبه ليس من طينة من يدونون ما لا علم لهم به خبرا أو وثيقة او معايشة أو قراءة . هذا السوسي الذكي والمتصوف الدرقاوي المنكمش على ذاته ، المولود بايليغ ، خبر الكتب بتخصصاتها المختلفة مثلما انخرط في ثقافة زمنه بكل تموجاتها . اعتبرته نخبة أهل فاس السلفية

بزعامة علال الفاسي من الافاقيين الوافدين على القرويين ، بكل ما تحمله لفظة الأفاقي من ازدراء عند أهل فاس الأقحاح ، لا لسبب سوى أنه علق على التحولات التي عرفتها قيم وسلوكات أهلها ودرجة استهلاكهم للآداب والمعاملات والفنون الفرنسية . وخبر السجن مع المستعمر وظل يرد الدين بطريقة العلماء لمنطقته الجنوبية .

لمن يهتم بسوسيولوجيا الأسر وامتداداتها السلالية غايته أن يطل على الكم الوفير الذي انجزه المختار السوسي عن اسر الجنوب والتي يصعب حصرها في هذا المقام الصغير . ولمن يهتم بالسوسيولوجا الدينية عليه أيضا أن يعبر الكتاب ويرتوي من تصنيف الشرف والشرفاء بالمنطقة ومن يهتم بالزوايا والطرق عليه أن ينتقي ما يوافق أسئلته بخصوص الشيخ أحمد وموسى وزاويته وشيوخه وأتباعه وأبنائه وأنواع صلاتهم بالسلط المركزية المتعاقبة على المغرب . كيف تأسست مدينة اليغ ، وكيف توسعت واستعادت بعض أحوازها ، وما الذي قاله الشعراء فيها ، وما هي حروب السلطة والزعامات القبلية التي اخترقتها ، وما هي علاقات الإيليغيين بالدلائيين والزيدانيين . أسئلة يفصل المختار السوسي فيها بلغته العربية البهية . إلى جانب ذلك يرصد الكتاب علاقات اليغ الخارجية والتجارية مع أوروبا :هولندا وانكلترا وفرنسا . وعلى شاكلة الدورة الخلدونية المتحكمة في صعود الدول والأمم واضمحلالها يخصص المختار السوسي فصوله الأخيرة لاليغ الحديثة والصراعات والحروب التي عاشها رجالاتها سواء فيما

بينهم أو مع الزعماء القبليين الراغبين في انشاء إماراتهم ، أو مع السلاطين العلويين ليعبر بعدها الى اليغ وقد فقدت عصبيتها وألقها وقوتها وانخرطت تحت إمرة السلطة المركزية كراهية لا طوعا . لقد ضعف المغرب أمام قوة الأوروبيين وماكان لاليغ سابقا من قوة جأش سيصبح حياة عادية لقرية لم تعد تمتلك سوى تاريخها .

عبد الكبير الخطيبي . .

من النقد الأحادي للمستعمر إلى النقد المزدوج

عبد الكبير الخطيبي من مواليد مدينة الجديدة سنة 1938 م درس بفرنسا وبها ناقش أطروحته الجامعية حول الرواية المغاربية وأصدر أكثر من عشرين عملا موزعا على اختصاصات متعددة بدء بالسوسيولوجيا والشعر والفن والنقد الأدبي والفكر والتاريخ . . وظل يشتغل إلى أن غادرنا يوم 16 مارس الفارط .

تمحورت السوسيولوجيا الوطنية في بداياتها حول سؤال العلاقة مع الإرث المعرفي الضخم الذي خلفته المؤسسات العلمية الاستعمارية حول المغرب . هل يمكن رفضه بحكم خلفياته الاستعمارية؟ أم من المفروض استهلاكه بحكم عدته المنهجية والميدانية العالية؟ وكان الحل الوسط هو الأكثر رواجا والذي يدعو إلى التعامل الحذر مع هاته المعرفة والعمل على تنقيتها من الإيديولوجيا الاستعمارية وعزل مكوناتها العلمية .

لم يكن الخطيبي ومعه بول باسكون من أصحاب الحل الوسط السادج والمريح وكذا من أصحاب الدعوة للمقاطعة أو الاستهلاك الأعمى. لقد حرر بول باسكون مع نهاية السبعينات مقالة مهمة في الموضوع عنونها بضرورة إعادة النظر في الإطار النظري لدراسة الظاهرة الاستعمارية وضمنها ثلاث ركائز بالغة الأهمية في هذا السياق: تمثلت الأولى في الدعوة إلى رفض الخطاب الاستعماري والخطاب الوطني بالتساوي ودفعهما جنبا إلى جنب بوصفهما ثنائي الاستقطاب. وثانيها ضرورة قلب الموضوعة الشائعة التي تعتبر الآخر هو المذنب وحده والأجنبي هو المسؤول وحده. مسؤولية الآخر ليست مشكلتنا بل مشكلتنا هي مسؤولياتنا فهل نحن مسؤولون؟ ما الذي أهملناه مما كان علينا القيام به؟ ولماذا لم نقم به؟ أما الركيزة الثالثة فهي ضرورة افتراض ازدواجية الأوضاع للقلب وقابليتها للعكس.

لقد جلبت هاته المقالة الويلات على بول باسكون فالخطاب الوطني ظل طابوها على السوسيولوجيا والأنتروبولوجيا وتمتع إلى حدود الثمانينات بنوع من القداسة لدى المستفيدين منه سواء كانوا أكاديميين أو سياسيين أو يجمعان بين اللعبتين.

لم يقدم الخطيبي للسوسيولوجيا بالمعنى الفعلي تراكما كبيرا، لكنه وبحكم تكونه المتعدد والمتين سيعمل على فتحها على إشكالات جديدة تماما بالنسبة للمغاربة والعرب. فإلى جانب «حصيلة السوسيولوجيا» الذي أعتبر أداة اشتغال أساسية للعازمين

على ولوج سوسيولوجيا المغرب وإلى جانب مقالاته النقدية النظريات الانقسامية والخلدونية والماركسية وهي تقرأ المجتمع المغربي يمكن اعتبار مقالة سوسيولوجيا العالم العربي الفتح الأكبر لهذا المفكر والإسهام الذي سيعرج بالسوسيولوجيا المغربية داخل آفاق جديدة.

ستنتقل السوسيولوجيا من مهمة النقد الأحادي إلى النقد المزدوج للظاهرة الاستعمارية ولغيرها من ظواهر الواقع الاجتماعي. يقول الخطيبي: تتمثل المهمة الأساسية للسوسيولوجيا في العالم الثالث في القيام بعمل نقدي مزدوج:

1 : تفكيك المفاهيم الناتجة عن المعرفة السوسيولوجية والكتابة السوسيولوجية اللتين كانتا تتكلمان باسم العالم العربي ويغلب عليهما الطابع الغربي وايديولوجية التمركز على الذات. وفي الوقت نفسه نقد للمعرفة والكتابة السوسيولوجية اللتين أنجزتهما مختلف مجتمعات العالم العربي حول ذاتها. نقصد أن يقول الخطيبي حركة مزدوجة منسقة نرى أنها وحدها القادرة على تجاوز مجرد الإعادة والتكرار وتفتح أمام علم الاجتماع إمكانية معرفة علمية أقل استيلابا وأكثر تكيفا مع خصوصية الموضوع المطروح.

2 : الكتابة السوسيولوجية لا يمكنها أن تكون إلا ممارسة عنيفة تأخذ على عاتقها التاريخ والإيديولوجيا والعلم. لذا يقول الخطيبي يجب علينا أن نحقق قطيعة عنيفة مع السيطرة الثقافية الغربية وتجاوز قوتنا القاصرة اذ ليس هنالك قول بريء بل على كل قول أن يجيب

بطريقته الخاصة عن شعلة الحياة . بهاته الكيفية يجعل الخطيبي من السوسيولوجيا كتابة خاصة للتاريخ والعلم والايديولوجيا وبفضل ذلك يخلصها من إشكالية العلمي والإيديولوجي التي استهوت البعض ويبعدها عن مشاريع تنقيتها مما هو استعماري وايديولوجي والتي تجند لها دون نجاح كثير من الجامعيين وتخلوا عنها في صمت رهيب .

3 : إن النقد المزدوج مؤداه حسب الخطيبي إعادة تشييد بنيان العلوم الاجتماعية . والمقصود بذلك أن نمنح الامتياز والأولوية للسوسيولوجيا التاريخية لأنها تهدم كل أشكال المذهب الوظيفي الذي يسيطر بقوة على العلوم الاجتماعية . إذا ما أعطينا الامتياز لسوسيولوجيا التاريخ (حسب الخطيبي التاريخ كتابة تأخد بنيتها بالنسبة إلى وقائع مادية وبالنسبة لمؤسسات اجتماعية) ستندثر الإيثنولوجيا مثلا . يوضح الخطيبي لا يتعلق الأمر بالايثنولوجيا بوصفها ظاهرة مرتبطة بالاستعمار والامبريالية فحسب ، بل لأن أساسها النظري مشبوه . إنها دراسة للآخر بوصفة نظرة صرف . في حين أنني لا أرى الآخر فحسب بل كما يقول ماكس شيللر ، بل أرى أيضا أنه ينظر إلي . وبلغة الخطيبي تنطوي جدلية الأنا والآخر على كل تواصل وكل رغبة في حين أن الإثنولوجيا تطرح موضوعا وهميا في تحليلها للتماثل والاختلاف . إلى جانب ضرورة منح السوسيولوجيا التارخية الامتياز يقترح الخطيبي ضرورة إنشاء جهاز مفاهيمي نستطيع ادراكه حسب النظام الاصطلاحي العربي .

لقد غيرت هاته المقالة الصغيرة منحى السوسيولوجيا المغربية والعربية مثلها في ذلك مثل الثورة التي أحدثتها دراسات الاسم العربي الجريح في الفكر العربي عامة . لم يكن الخطيبي مفكرا فقط بل رجل حركة وفعل . لقد سند أطروحته الأساسية في السوسيولوجيا بعمل كبير سواء بمعهد السوسيولوجيا الذي كان يرأس إدارته أو بالمجلات الوازنة التي طبعت تارخ السوسيولوجيا المغربية وكذا بالملفات العلمية التي كان يسهر على اقتراحها وتنسيق موادها للنشر . وإلى حدود ادارته للمعهد الجامعي للبحث العلمي فتح للسوسيولوجيا وباحثيها إمكانيات اللقاء والتواصل المباشرين مع أعلام كثر من السوسيولوجيين والفلاسفة الغربيين .

الخطيبي: ثقافة المغربي وسلوكاته

يصعب تقديم أعمال الخطيبي المتنوعة في كتابة تركيبية مركزة . فإلى جانب النقد المزدوج والمغرب الكبير المتعدد وأعمال ودراسات أخرى تهم المهتم بالعلوم الاجتماعية يشغل الاسم العربي الجريح في مسار الرجل موقعا خاصا مثلما يعتبر من الأعمال المرجعية في بيبليوغرافيا السوسيولوجيا المغربية . فموضوعه هو ثقافة المغاربة الشعبية : حديث الأمثال والوشم وبلاغة الجماع والحكاية الشعبية والرسم الخطي . وما يجمع موضوعات الكتب هو أنها كما يقول الخطيبي تخضع لتحريم مضاعف . أنها تخضع لتحريم العلماء واللغويين

لأنهم لا يرون فيه نصوصا وكتابة مغايرة للمكتوب التقليدي وهي محرمة من طرف رجال الدين .

قدم بإعجاب كبير رولان بارث للكتاب وقال بصدده : ما يمكنني أن أسائله على مستوى معين من السلم الاجتماعي الذي أخد فيه مكاني هو الفرنسي الثقافي مصوغا بالأمواج المتعاقبة للعقلانية والديموقراطية ووسائل الاعلام الجماهيري . وما يسائله الخطيبي هو إنسان شعبي كلية ، هذا الذي لا يتكلم إلا بهذه الأدلة الخاصة . . . وهنا يمكن لفرنسي مثلي أن يتعلم شيئا من الخطيبي . إننا لا نستطيع أن نفعل ما يفعله .

يعتبر الخطيبي أن اختياره للدلائلية الشعبية محفز لاختبار تحليلات مركزة على تعددية أنظمة دلائلية مختلفة كالحكاية والمثل والخط والوشم وأخيرا النص الشبقي لصاحبه النفزاوي . فلماذا بالضبط هذه الأنظمة التي يظهر مسلكها جزئيا؟

يجيب الخطيبي ، ان تحليلنا ينتظم وفق حافزين ، أولهما يقوم على أن كل الأنظمة الدلائلية هي ترجمة للجسم ومتعته : من الرسم إلى اللذة المحرمة المتمثلة في قصة الطائر الناطق . أنه نشر كتابة مرحة وعليها يعتمد اقتصاد النص واللذة . والحافز الثاني ينتسب إلى تداخل دلائلي معترض ، إلى الحد الذي يجعل المعرفة العلمية كل مرة متصدعة ، مطوية ، ذات وشيجة بحتمية نصية . أنه تداخل نصي مرسوم حسب محاور ثلاثة :

- دلائلية خطية (وشم وخط) منظور إليها في سمته الرمزية .
- بلاغة الجماع وهي مسماة من قبل الصينيين القدماء بفن غرفة النوم . وقد اخترنا نص الروض العاطر لأنه مسموع أكثر منه مقروء .
- دلائلية شفوية (الحكايات والأمثال) وسنستفيد منها في الإحاطة بعلاقة الصوت بالأسطورة .

بهاته الكيفية يعلن الخطيبي استراتيجيته التحليلية وتصوراته المرجعية التي سينسج بها دراسات الاسم العربي الجريح والتي على امتدادها كان ماركسيا مغايرا لجميع الماركسيين (رصد الصراع الطبقي داخل النص) وسوسيولوجيا مغايرا لجميع السوسيولوجيين (ميدانه البحثي ليس فيه لا استمارات أو مقابلات أو تدوين للأقوال بل لقاءات خاصة شكل من خلالها متن وثائقه الخاصة مضيفا إليها وثائق وصور مأخودة عن غيره) ومحللا مغايرا لجميع الأكادميين (أسلوبه ولغته هي صوت آخرللنصوص المحللة) .

ربما لهاته الأسباب سيعتبر الاسم العربي الجريح إلى جانب النقد المزدوج الصناعة السوسيولوجية الثقيلة لعبد الكبير الخطيبي .

لا تفقد نصوص الخطيبي أهميتها وإن كانت نحيفة . فهي تحتضن دائما فكرة أو أفكارا كبرى . في احدى الدراسات من هذا الصنف ، احتضنها كتاب ، تفكير المغرب ، وحملت عنوان : صورة المغربي المشخصة . ترسم هاته المقالة صورة لأهم سلوكات المغربي اليومية والمهيمنة مثلما يمنحها بعدا سوسيولوجيا . لقد أنتج تغير المجتمع

المغربي تحولات في سلوكات أبنائه . فبعد أن كانوا ينعمون بعلاقة هادئة مع الزمن والوقت ، سيكتشفون ظاهرة السرعة . هكذا أصبح المغربي يجري لكن لكي يصل متأخرا وحينما يصل متأخرا يكون تعليله لذلك هو مسؤولية الآخر . يقول الخطيبي أنظروا إلى سائق سيارة أمام الضوء الأحمر : حينما لا يخرق نظام الضوء الأحمر فإنه يتوقف وقد خلفه وراءه . المغربي لا ينظر إلى القانون وجها لوجه ، تلك هي حيلته البصرية . إن احترام المغربي للقانون وانتهاكه له سلوكان متداخلان ومتشابكان مع نفس النظرة ونفس السلوك . يحترم المغربي السلطة والتراتب بشكل مبالغ فيه لكنه حينما ينتفض فانه يأتي على الأخضر واليابس . إن المغربي يقول الخطيبي كائن إشكالي وتجزيئي ، يعاني من ازدواج في الشخصية ويمتلك صورة هشة عن ذاته . هكذا هو حينما يكون من دون جماعة وقبيلة تسنده ، لكن وسط الجماعة يكون مناورا وذكيا ومجربا ووريثا لجد محارب ومقاتل .

للمغاربة جملتهم السحرية : ما كاين مشكل . فسواء وجهت هاته العبارة ، يقول الخطيبي ، من طرف موظف إلى مواطن أو من طرف وزير إلى زميل له أو من طرف زوج لزوجته أو من طرف امرأة لعشيقها . . تظل الجملة السحرية التي تعالج كل شيء ، أي لا تعالج شيئا .

يشبه كلام المغاربة لعبة الشطرنج حيث يكون المتحاورون هم قطع الشطرنج ومن يلعبها في الآن نفسه . المغربي يدرك هذا لذا فلكل وضعية جملتها .

فن أدب المعاملة وفن الاحتفال أربك ويربك غير المغاربة من الغربيين وفي بعض الأحيان يسعدهم . أليس هذا ما يطلق عليه ، ويقدم للآخر ، كوصفة خرافية عن كرم الضيافة؟

البقاء للأثر

مفهوم الأثر من المفاهيم البارزة لفكر الاختلاف . شغله بشغف جاك دريدا ورحل به عبد الكبير الخطيبي إلى عوالم أخرى . الأثر مثله مثل الموت ، أثر وإمحاء : كان هنا ولم يعد . لم يعد لكنه لازال هنا . ذاك هو مغزى الأثر مثله في ذلك مثل كل سمة وسير وعلامة وخط وبصمة . . .

رحل الخطيبي ، لم يرحل ، هو الآن هنا وهناك ، داخل هذا الجدل المحايث للموت والحياة ، والأثر والمحو ، والسمة – السير والابتعاد ، لا يجد الخطاب المأتمي عن الموت غداء له . فرحيل الكاتب والمفكر والفنان المبدع لا يقل في شيء عن رحيل الشهيد الذي تقشعر سريرته من لغط البكاء .

لا بقاء سوى للأثر بما هو نص ونسج وعلامة ورمز وحركة وحياة ورسم . . . . هي ذي آثار الخطيبي . ليست لا بمشروع ، رحل قبل غلق أبوابه (كان يرفض كلمة مشروع) ، ولا هي بنبوءة خلفت معد خطبة وداعها . بل يتعلق الأمر باستراتيجية في الحركة – النقد المزدوجة . حركت تخترق الذات والآخر ولا مستقر لها أو مركز أو نواة . لم تنتظر

يوما هاته الحركة المزدوجة منبعثا من الماضي أو جده من الأجداد بل ظلت دائما مشدودة إلى هذا العائد من المستقبل . ذاك الآت من زمن الحداثة الغائر في المستقبل .

ربما هذا ما جعل الخطيبي مع عقد السبعينات يبدو وكأنه ينتج لغة شاردة على جميع المستويات .

فحركة النقد المزدوج ليست مستقيمة ، بل لا تراوح مكانا وزمانا . إنها فعل التشقيق والتفكيك لجميع الأنوية اللاهوتية ، سواء كانت ماضوية أو تقنوية ، ثراتوية أو حداثيوية ، نخبوية أو شعبوية . لقد أغنت استراتيجية الخطيبي النقدية حال ومسار الفكر العربي والمغربي ، مثلما اغتنت بحالة الاخضرار الجميلة التي كانت تعيشها ساحات الفكر المحلية والعالمية . بالمغرب كان مفكرونا الشباب سنا آنذاك يجتهد كل منهم ليقوض تصورا ما وينحت مفهوما مطابقا لحال مجتمعنا الكبير والصغير : ما هي هوية مجتمعاتنا العربية؟ هوية وعينا العربي؟ حقيقة تاريخنا؟ علاقتنا مع منتوج الوطن ومنتوج الآخر؟

كيفيات ومناهج التغيير والتحديث؟ مكونات شعبنا وتاريخنا؟ . . . .

لم تخفت عطاءات عبد الله العروي منذ داك الحين وإلى الآن ، مثلما تبلور مشروع محمد عابد الجابري بشكل كامل ونضجت بشكل أكبر أطروحات عبد الله حمودي ، واختار آخرون من نفس الجيل المعطاء سبلا أخرى لإنجاز اجتهاداتهم . كما برز جيل آخر لا زالت

ينابيعه تتجدد . داخل هذا السياق كانت حركة النقد المزدوج ولازالت تستفز وتزعج وتطمئن وتريح . قدرها في ذلك قدر كل الاجتهادات والاختيارات النظرية الوازنة . تطمئن عشاق الترحال النظري والنقد المفكك للغة والموضوعات والنصوص والعلامات ، وتزعج رواد الصرامة المنهجية والتحليلية والتوثيقية والميدانية . بين الانجذاب الفرح والرفض المتوحش والاستهلاك النقدي ظلت حركة النقد تلك تغني خيالها وتجدد لغتها و كذا عوالمها .

ربما هذا أيضا ما ظل وسيظل يشد انتباه قراء هذا الجيل والجيل اللاحق ، كلما أطل على تأمل من تأملات الخطيبي أو فلتة من فلتاته الواعية والذكية . لقد ظل يتحرك بذكاء على التخوم مبتهجا باللعب على الطريقة البرمينيدية (نسبة إلى برمنيد) . لعب ناري أو هو اللعب النار ذاتها . لعب في اللغة وفي المفاهيم والمرجعيات والمجالات .

لقد كان الخطيبي على علم بأن الفلسفة قضية جدية والسوسيولوجيا علم الوصف والفحص والتحليل النفسي فن التأويل الصعب . . . وكان يمارس لعبه بين هذا وذاك . لقد كان يتقن هدا النوع من اللعب البرمينيدي وأن لم ينج من مخاطره .

لقد هاجم سارتر بعنف مزدوج لدرجة إسالة دموعه (مقالة دموع سارتر) ودفع بجاك بيرك إلى حدود استشراقية لم يكتشفها أي من قرائه وساجل حول كتابه النقد المزدوج وهو يخاطب منصتيه بالرفاق ، ودفع بعبد الله العروى إلى دائرة داعية التقنية وهو ما لا يمكن لقارئه

أن يشتم ولو رائحتة . . . .

تلك هي بهجة ولوعة الحب للفكر والأفكار . إنه لا يتفاوض أبدا وإن جرح ، ولا يتواطؤ على النقد وإن زهد . اثار الخطيبي في صلب النقد وعلى حدوده .

لم يكن رولان بارث محقا حينما اعتبر الخطيبي منسي المثقفين (أو مغدورا من طرفهم) لأنه ظل مثلما سيظل حاضرا في صلب ما أسسه وسار عليه . فلا يمكن تجاوزه اتفاقا أو اختلافا في جل أن لم نقل كل قضايانا الثقافية والفكرية والجمالية والأدبية والعلمية . لا يتعلق الأمر بمفكر موسوعي على الطريقة التقليدية . بل إن الخطيبي ليس بحمال للمؤلفات ، بل موهوب بالتقاط حركة المفاصل . أو بلغة كلود ليفي ستراوس أنه مثل الشامان الذي يصل إلى نفس ما يصل إليه عالم الطبيعة أو الطبيب لكن بميزة إضافية

تكمن في كونه لا يقتصر على تشغيل مقولات الفكر ، بل يشغل الجسد كله مسلحا بعين نيتشوية ثالثة .

مثل الخطيبي يتحدث الشامان لغة متعددة المنطق مثلما لمعرفته وعلمه نفع نظري وعملي غير متوقع .

ذاك هو ما حدث مع بعض نصوص الاسم العربي الجريح . فقد شغلت بلورات الخطيبي عن الحناء والوشم في فضاءات طقوسية وعلاجية مثلما شغلت نصوصه عن بلاغة الجماع في العلاقات العاطفية والجنسية العالمة .

ذاك ما ظل الخطيبي يجمعه ويفرقه : الحرف والجسد ، الوخز والوشم ، الغمز والرمز ، لعبة الكتابة في شكل وسام على الجسد ، الهندسي والنحوي ، الخطي والموسيقي . . .

التفكيك المزدوج للاهوت والتقنية ، للتاريخ وللهوية ، ظل استراتيجية الخطيبي التي تمكنه من التحرك في الفضاءات الأكثر قداسة وتلك الأكثر دنيوية . لقد دشن البحث في الثقافة الشعبية بطريقة مغايرة منهجيا وتحليليا ومفاهيميا . وعبر من خلالها إلى تهديم التصورات الشعبوية للشعب ولثقافته .

و كأنه يعلمنا الكيفيات التي يجب على العالم أن ينهجها في صلاته بمحيطه السياسي . لقد حول قضايا اليسار إلى موضوعات فكرية وبموازاتها خلف آثارا معالجة بشكل مباشر للحقل السياسي والحزبي المغربي .

من معهد السوسيولوجيا (الحدث والنكبة في تاريخ العلوم الاجتماعية المغربية) إلي المعهد الجامعي للبحث العلمي ظل الخطيبي يسم ويشم الحقل الثقافي المحلي والدولي . وفي فترة مرضه الأخيرة كانت آثاره تزين أيدي المطبعين الباريسيين .

لقد رحل الخطيبي لكنه لم يرحل ، فالبقاء بالأثر . لقد خلف أثرا ومن بين عناوينه رواية عنوانها ثلاثية الرباط تستدعي من كل قاطنة الرباط أو زائريها أن يقرؤؤها أو يعيدوا قراءتها . يسخر الخطيبي من وضعية الرباط الجديدة : كيف يحصل لمدينة مثل الرباط أن تدير

وجهها عن البحر؟؟ كيف لمدينة يحاديها البحر وتدير إليه ظهرها؟؟

لم يرحل الخطيبي إلا وهو يرى كيف استيقظ أخيرا أهل المدينة وقرروا أن ترى مدينتهم البحر وجها لوجه . لم يعد الخطيبي سوسيولوجي وكاتب الأثر الغائب (الحرف) بل أيضا مهندسا للأثر الشاهد .

غريغوري لازاريف . . القرية المغربية وتحولاتها

قدمنا في الحلقات السابقة نماذج عن الأبحاث الميدانية التي أنجزت في سياق معهد السوسيولجيا المغربي ، وبتأطير من باحثيه ، والآن نقدم إحدى نماذج حلقات التكوين التي كان المعهد ينظمها بين مجموعات البحث التي كانت تشكل عماد إنجازاته العلمية . حلقة التكوين هاته قدم لها عبد الكبير الخطيبي محددا هدفها في مساءلة مفهوم التنمية ، ومدى ملاءمة مضامينه المختلفة لتغيرات وتحولات القرية المغربية . قدم العرض غريغوري لازاريف بوصفه عضو مجموعة البحث المكونة من نجيب بودربالة ومحمد الناصري وعبد الواحد الراضي . وقد جاء تحت عنوان : التغير الاجتماعي والتنمية في القرى المغربية . أسئلة العرض توزعت بين السؤال : القرى المغربية تعرف تغيرا اجتماعيا ، فما هي طبيعة هذا التغير؟ والسؤال عن نوعية التصورات التي لدى الجماعات المعنية عن هذا التغير وإلى أي حد هم مهيؤون للفعل فيه؟

في بدء إجابته يحدد غرغوري لازاريف مفهوم التنمية وبعده مفهوم التغير الاجتماعي . عن الأول يقول : التنمية هي مجموع التغيرات الاجتماعية والعقلية التي تهيء شروط النمو ومتابعته على المدى الطويل . أما سوسيولوجيا التنمية فإنها تدرس الكيفية التي تظهر بها اعتماد مرجعيات الحضارة الصناعية ، في المجتمعات غير الصناعية . موضوعها اذن هو تحليل تكون وتميز الاعتماد على هاته المرجعيات . أما مفهوم التغير الاجتماعي فإن الحديث عنه ، حسب لازاريف يعني أننا نضع تحليلنا للمجتمع في علاقة مع وضعيته السابقة الواقعية أو المفترضة . المشكل الأول إذن هو معرفة نقطة انطلاق التحليل ونوعية النموذج الاجتماعي المرجعي . في سياق سيرورة التغير الاجتماعي والتي سميناها تنمية ، النوذج الاجتماعي المرجعي سيكون هو المجتمع التقليدي . لكن هل فعلا يكفي نعت التقليدي لتحديد هذا النموذج الاجتماعي؟ وهل مفهوم المجتمع التقليدي يتمتع بنوع من الفعالية والملاءمة؟ إنها الأسئلة الاشكالية للعرض والتي تم بحثها بناء على معرفة لازاريف ومجموعة البحث ببعض المعطيات الميدانية المجمعة بالمعهد عن العالم القروي .

يرسي العرض مقومات الصورة الاجتماعية التي تجعلنا ننعت المجتمع القروى بالمجتمع التقليدي ، ويحددها في سبعة ملامح أو مقومات . أولا نمط تنظيمها الاجتماعي يرتكز أساسا على العلاقات الأسرية والعائلية الممتدة ، ثانيا علاقاتها الاقتصادية مبنية

على التساوي بين المجموعات العائلية وذلك ضمن نظام جماعي خاضع لتقسيم اجتماعي للعمل . ثالثا حركتها الاجتماعية ضعيفة ومحدودة بالامتداد السلالي . رابعا تشكل الديانة الاسلامية مرجع نسقها الايديولوجي . خامسا حقلها الاجتماعي محدد بحدود تراب الجماعة . سادسا زمنها الاجتماعي دائري وهو ما يخضع الأفعال الاجتماعية للتكرار في غياب أي مشروع للتجاوز . سابعا الوسائل المادية أولية والمعرفة العملية التقنية بسيطة ومراكمة الثروات محدودة جدا . انه عبر تشكيل متناغم لهاته العناصر يمكننا بناء نموذج مثالي للمجتمع التقليدي في القرن التاسع عشر . هذا النموذج المثالي لن يظل هو هو مع المرحلة الاستعمارية ، بل سيمس في العمق . يقول لازاريف : المجتمع التقليدي القروي المغربي الذي يتم استدعاؤه واعتماده ، أثناء اللحظة الاستعمارية ، كنقيض للمجتمع العصري ، يبدو أنه مجتمع تعرض لتغيرات عديدة نتيجة اللقاء الثقافي والذي نعته جورج بلانديي بالوضعية الاستعمارية . هدف العرض من وراء ذلك هو صعوبة تصنيف المجتمع القروي كمجتمع تقليدي في تعارضه مع المجتمع العصري وسبب ذلك هو أن المجتمع القروي ومنذ اللحظة الاستعمارية سيعرف تغيرات اجتماعية ستمس عمقه التقليدي وستجعله لا بالمجتمع التقليدي أو المعاصر . إنه استهداف علمي لتقويض الثنائية السوسيولوجية المعتمدة من طرف الكثيرين والمتمثل في الزوج : مجتمع تقليدي ومجتمع عصري . يورد لازاريف

عوامل التحول والتغير الاجتماعي التي لحقت القرى المغربية ويجملها في أربعة موضوعات :

- الظاهرة الايديولوجية المتصلة بالاستقلال : لقد ترافق الاستقلال حسب لازاريف بعوامل تغير اجتماعي عديدة تمس في هذاالسياق عناصر تشكل نسق جديد من التمثلات الاجتماعية للقرويين . مس فعل توسيع مجالهم الاجتماعي ورؤيتهم للعالم ومواجهتهم بزمن اجتماعي مغاير ومساءلة جديدة للتحولات الاجتماعية .(دور الاحزاب السياسية والإعلام في إدخال لغة جديدة وتنظيمات مغايرة وسلوكات غير معهودة كالانتخاب مثلا) .

- النمو الديموغرافي : ويمكن اعتباره أهم عوامل التغير الاجتماعي بالبادية المغربية . لقد خلخل العلاقة المتوازنة بين الحاجيات وما هو متوفر ، وهو ما سيفتح القرية على المدينة وسيغير العلاقات الأسرية والقيمية ومستوى دخل الأسر والأفراد . . .

- تسييد علاقات النقد في العلاقات الاقتصادية : والتي أحدثت تغيرات كبرى على العلاقات الاقتصادية القرية . إنها مؤشر العبور من اقتصاد الاكتفاء الى اقتصاد التبادل والربح . ومن الخماس إلى الفلاح الأجير أو العامل الزراعي .

- تملك الوعي بالتغير الاجتماعي : ويتمثل في انتقال القروي من الارتباط الشديد بالجماعة والقبيلة إلى الارتباط بالواقع الوطني عموما ، بعلاقاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وقد كانت

أشكال المقاومة المسلحة للمستعمر في البوادي المغربية إحدى عوامل التجذر الثقافي العام ضمن سياق وطني أعم .

إنها ملامح التغير الاجتماعي الكبرى التي قدمها غريغوري لازارف في عرضه والتي تتطلب حسبه متابعتها بابحاث اخرى توضح أشكال انغراس النمط الرأسمالي في بنيات المجتمع المغربي بكل ما يستتبع ذلك من تغيرات في أعماق المجتمع القروي المسمى خطأ بالمجتمع التقليدي .

سقراط السوسيولوجيين المغاربة . . هيمنة المشروع المخزني

الدكتور محمد جسوس من الوجوه السوسيولوجية المغربية الأكثر اثارة للجدل . باحث سوسيولوجي ومناضل سياسي ، عضو المكتب السياسي للاتحاد الشتراكي للقوات الشعبية وأستاذ جامعي بجامعة محمد الخامس بالرباط . انخرط من كل هاته المواقع في جميع القضايا التي همت وتهم المجتمع المغربي . فسواء تعلق الأمر بالمجال التربوي التعليمي او اللغوي أو الاجتماعي أو السياسي أو النظري والابستمولوجي تجده متدخلا بتصريح للإعلام أو مشاركا في ندوة أو لقاء من اللقاءات أو موقعا على بيان . . .

لم يعر محمد جسوس للكتابة والتأليف أهمية تذكر بل اختار عوض تأليف الكتب الانخراط والتدخل وعوض الزهد في مكتبه وهب الوقت كله لتيسير ميلاد نخبة الباحثين والمناضلين الشباب .

موازاة مع دروسه ومحاضراته بالكلية ظل مسكنه السابق بحي أكدال مدرجا من نوع آخر لممارسة فعل التكوين وعقد حلقات النظر والحوار السوسيولوجيين مع طلبته الباحثين ، ولم يكن ممانعا في فتح باب صدره ومسكنه وتكوينه لغير طلبته المسجلين معه في إطار السلك الثالث . وقد كنت شخصيا من المستفيدين من هاته الحلقات التكوينية . وعلى الطريقة السقراطية كان الأستاذ جسوس أو سي محمد كما يناديه طلبته يجمع فوق مكتبه عددا من الكتب يقل بقليل عن عدد السجائر التي تحترق وكأنه سيتلو منها ما يهم سؤال الحلقة أو سيظهر الاستشهادات المعززة لتحليلاته . لم تكن تلك الكتب نصوصا بل درائع فقط ، لممارسة الدرس السقراطي الحر والمتحرر من الوثيقة والتوثيق . لقد كان يظهرها لنا نحن وكأنه يرغب في تأسيس المرحلة الأفلاطونية في المجال السوسيولوجي الدائر في حلقاته . . .

شكل الأستاذ جسوس ملامح باحثين كثر ، منهم من أفلح ومنهم من قضى نحبه ، وقد كانت مبادرة السوسيولوجي إدريس بنسعيد درسا في هذا المجال لطلبته الذين ارتووا بكتب مكتبته ومحاضراته وصلاتهم الشخصية معه وظلوا يغلقون على محاضراته في الرفوف المهترئة . لقد اعتبر سوسيولوجيون مغاربة الأستاذ محمد جسوس صانع كلام لا أشخاص ومروج ايديولوجيا لا سوسيولوجيا ومؤطر شبيبة اتحادية لا شبيبة بحثية وهم في ذلك ليسوا لا بالمخطئين كلية او المصيبين كلية . لم يستسغ بول باسكون العمل بالمونوغرافيات مثلما لم يستسغ محمد

جسوس تفسيرات بول باسكون للمجتمع المغربي مثلها في ذلك مثل طرق اشتغاله مع المتمرس سوسيولوجيا وغير المتمرس . ولم يكن لمحمد جسوس أن يهضم بسهولة ماركسية وعلمانية باسكون وغيره مثلما لم يكن لهذا الاخير أن يغض الطرف عن الخطاب الوطني والاتحادي لمحمد جسوس . إنه الصراع بين تصورات للفعل السوسيولوجي وأنماط تمفصله مع الفعل المجتمعي . صراع سيتخذ مع نهاية السبعينيات شكل تنازع للسلط العلمية بين جامعة محمد الخامس (والتي لم تخل من هذا الصراع داخل أسوارها) ومعهد الحسن الثاني للزراعة والبيطرة .

دافع الخطيبي ونجيب بودربالة وبول باسكون عن النقد المزدوج للخطاب الاستعماري والوطني على حد سواء ودافع محمد جسوس عن الخطاب الوطني بدء بالحركة الوطنية وو صولا إلى ما ولدته من أحزاب وطنية . واختار الكل أن يراهن على طلبته ويوفر لنفسه مجلاته وإطاراته الجمعوية والبحثية . انها المرحلة التي رحل كثير من رجالاتها ولو قامت جمعية علم الاجتماع الحالية بتوثيقها من أفواه المتبقين والوثائق (وثائق الجمعية وأرشيفها وملفات المجلات . . .) لربحت أجر جيل الباحثين السوسيولوجيين الشباب .

سواء في حواراته مع الجرائد والمجلات الوطنية أو في اللقاءات التي تدخل فيها أو أدارها ظل محد جسوس مرفوقا بالسؤال والبحث عن القوى والآليات التي تلعب الأدوار أكثر من غيرها في هيكلة

المجتمع المغربي وفي التأثير على أكبر عدد من من مجالاته وكذا في تحديد ملامحه المستقبلية . ففي بحثه في طبيعة ومآل المجتمع المغربي المعاصر يرى محمد جسوس أن المجتمع المغربي شهد ويشهد خمس مشاريع هيكلته ولازالت تفعل في تحديد مصيره ومستقبله . هاته المشاريع هي : مشروع القرابة بالمعنى الأصلي للكلمة . (قرابة الدم) والمعنى المجازي (القرابة بوصفها عصبية) . إنه المشروع الذي استطاع الصمود لأن المغاربة لا يجدون غيرة أمامهم خصوصا في لحظات الشدة . مشروع الأمة المغربية : وهو مشرروع قديم لكنه تبلور في سياق صمود المغاربة أمام التغلغل الاستعماري . ربما هذا ما جعل المغرب حسب محمد جسوس آخر دولة إفريقية تستعمر ومن بين الدول الأولى التي حصلت على استقلالاتها . المشروع الرأسمالي البرجوازي : وهو المشروع الذي ظهر مع نهاية القرن التاسع عشر . ولو لم تكن هنالك الحماية الفرنسية لكانت هنالك إمكانية لظهور برجوازية مغربية . النظام الزبوني : والذي يتمثل في العلاقات الزبونية التي أضحت تتحول شيئا فشيئا إلى واقع وقيم ومعتقدات . إنه الشعور الذي أصبح يغمر الناس بضرورة البحث عمن يساعدهم ويحميهم ويتدخل لهم كوسيط بينهم وبين من يتحكم فيهم . وأخيرا المشروع المخزني :و هو مشروع تاريخي قديم جدا . يتسم بحضور قوي للسلطة المركزية وتحكمها في كافة مجالات الحياة والمجتمع ، وكذا بخدمة المجتمع للدولة عوض العكس . إنه المشروع المهيمن على المجتمع

المغربي والذي يتطلب إلى جانب البحث السوسيولوجي فعلا مدنيا وسياسيا قويا لزحزحته .

عبد الله حمودي والأسس الثقافية للسلطة بالمغرب

عبد الله حمودي من الأنثروبولوجيين الوازنين بالمغرب . يجد السوسيولوجيين أنفسهم مضطرين لمتابعة أعماله الميدانية والتحليلية . لقد انخرط منذ عقود ، مثله في ذلك مثل بول باسكون والخطيبي في زعزعة المقولات الانقسامية ، وإعادة تفكير وتحليل طبيعة التراتبات الاجتماعية في المغرب . وبالموازاة مع ذلك حفر في حقل الولاية والصلاح بمقالات معمقة (الولاية والسلطة والمجتمع : تامغراوت في القرن السابع والثامن عشر . ومظاهر من الحركية الشعبية القروية من خلال بيوغرافيا مهدي متوفى سنة 1919م . . .) . بدأت ملامح مشروعه أو استراتيجيته العلمية تتضح أكثر مند نشر بحثه الميداني : الضحية وأقنعتها . والذي سيشكل أحد مرتكزات العبور نحو رسم ملامح أطروحته حول النسق السياسي المغربي والتي سينشرها في كتابه : الشيخ والمريد ، النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية الحديثة .

يتقاطع عبد الله حمود ي في كتابيه الضحية وأقنعتها وموسم بمكة مع كليفورد كيرتز ، سواء على مستوى الاختيار المنهجي أو على مستوى رفع الحدود بين الأنثروبولوجي والكاتب . (لنا عودة للموضوع

والكتابين في الحلقة القادمة) . لكن في مؤلف الشيخ والمريد يبسط أطروحته الأساسية والمنبنية على فرضية كبرى موجهة مفادها حسب حمودي ، تسرب خطاطة ثقافية من مجال الولاية الصوفية إلى المجال السياسي . هاته الخطاطة التي استندت عليها علاقات السلطة واستمدت منها ديناميتها هي علاقة الشيخ بالمريد والتي أصبحت العلاقة النمودجية لعلاقات السلطة الأخرى .

يتوجه عبد الله حمودي نحو المجال الصوفي ومجال الولاية ليجيب عن الكيفية التي تتشكل بها سلطة ولي الله ثم حول بنية هاته السلطة . ولبيان ذلك سيعتمد سيرة الحاج علي الدرقاوي مؤسس زاوية البغ المأخودة عما كتبه ابنه المختار السوسي ليستنتج من ذلك كله أهم السمات المميزة للشيخ ولسلطته . تتمثل هاته السمات حسب حمودي في ثلات :

- الهمة والمقصود بها الحماس الرجولي والقوة التوالدية التي لا تعرف يأسا أو قنوطا ولا يعتريها فتور .
- الهيبة وتعني الخشية والهول الملفوفين بنبرة دينية توحي بأحاسيس خارقة .
- العزيمة وتعني إرادة القرار وسلطته اللتين لا تردان .

حينما تجتمع هاته الثلاثية في شخصية واحدة فإن الناس يعتقدون أن في الأمر سحرا مثلما يرون في هذا الشخص كائنا يتمتع بحظوة الاهية تعرض الجاحد والمتمرد إلى الإفلاس في ممتلكاته وآماله في

الخلاص . يحلل حمودي الكيفية التي تتشكل بها هاته السمات الثلاث في العلاقة بين الشيخ ومريده وحينما ينتهي من ذلك يعبر لتفسير كيفية تسربها إلى المجال السياسي . يقول حمودي بأن التفاعل بين الشيخ والمريد والمبدأ الذي يؤسس هذا التفاعل لا زالا يبنيان الفعل السياسي بالمغرب إلى حدود الآن . في هذا السياق يبسط الكتاب سمات النظام السياسي المغربي ويحددها في :

- احتكار القرار الاستراتيجي وممارسة التحكيم . وإنجاز ذلك يتم بالتهديد والعنف الحاضر دوما وكذا المناورة بالوسائل الاقتصادية .
- في مركز هذا النظام يوجد زعيم يحيط به مقربون ومريدون لا يعرفون سبيلا للنجاح سوى عبر الاستئذان . وفي مركز المركز يوجد وجه الملك ذى القطبين : وجه القداسة ووجه العنف . إنه وجه الزعامة والمشيخة الذي يستمد قوته من النموذج الذي يشكل الارتباط بين الشيخ والمريد في التلقين الصوفي مثاله المقدس . يسند عبد الله حمودي ذلك ببيان المبادئ المحددة للعلاقة بين الأمير ومريديه أو خدامه حيث يعتبر أنها تنبني على أعمدة ثلاثة ، تتمثل في التقرب والخدمة والهبة .

يشغل الأمير إذن إضافة إلى وضع الزعيم أو القائد السياسي وضع القطب (الشيخ) والأب . إنه مركز القرب الذي يشكل دائرته الخدام . وهو موزع النعم والهبات حسب درجات الخدمة والقرب . وبسبب ذلك يرسخ علاقات الشيخ بمريديه داخل المجال السياسي مثلما

يوظف مقوماتها الأساسية من خدمة وتقرب وخضوع وأبوة وقطبية . أما المرشح لمنصب السلطة فإنه يشغل وضعية المريد أمام شيخه . إنه ملزم بالخضوع التام لمن يشغل كرسي السيادة . خضوع يتجلى في خفض الرأس وخدمة الأمير والتخلي في حضوره عن إظهار أي تصرف سلطوي أو اظهار رجولة مفرطة .

الأنثروبولوجي والأضحية

في إحدى حواراته اعتبر كلود ليفي ستراوس أن الباحث لا يمكنه أن يكون أنثروبولوجي قبيلته ، وعكس ذلك سيخوض الأنثروبولوجي المغربي عبد الله حمودي تجربة الاشتغال على مجتمع هو وليد ثقافته . في بحثه : الضحية وأقنعتها سيقصد قرية ايمين تاسانت الأمازيغية لرصد ومعايشة أحد الاحتفالات السنوية التي تقام في القرية بتزامن مع شعيرة عيد الأضحى . ففي صبيحة العيد يضحي أهل القرية مثلهم في ذلك مثل مسلمي العالم وفي الزوال ينطلق حفل التقنع (بيلماون) ليغطي مساحة أيام ويقلب معها جميع القواعد والقيم المعتادة . يعتبر بيلماون الشخصية الأساسية للحفل التنكري ، إنه الحيوان المغلف بجلد الأضحية والمعلن بشكل كاريكاتوري للأعضاء الجنسية . إلى جانبه يحضر أربعة يهود بينهم حبر واحد ويشكلون حراس بيلماون أثناء تجواله في دروب القرية واقتحامه لبيوتها المحتضنة للنساء فقط . يعتبر حمودي أن من بين مهمات الكتاب إظهار وإعلان

عمق هاتين الظاهرتين المتناقضتين في المظهر : طقس بيلماون وشعيرة العيد . منهجيا ينتقد الباحث الأطروحات الكولونيالية متمثلة في كل من مولييراس ودوتي وويسترمارك ويفضل عوضها استلهام منهجية كيرتز الفينومينولوجية والرمزية . إنه البحث في الكيفيات التي يعبر بها المجتمع عن ذاته الثقافية والوجدانية والاجتماعية . . كيف تضمن الجماعة إعادة إنتاج النسب مع الإبقاء على النظام الأبوي؟ كيف تتعايش الأضحية عند الرجل مع الهبة عند المرأة؟ كيف يكون الفرد نفسه والآخر معا؟ كيف يستخدم التقويم الشمسي والقمري في الآن ذاته؟ كيف يحترم الإسلام مع ضمان حماية المعتقدات المحلية؟ إنها الأسئلة الكبرى للبحث والتي فصلها عبد الله حمودي على طول المفاصل الأربع الكبرى لمؤلفه . يصف الكتاب طقس بيلماون بدءا من لحظة الإعداد له في الكواليس ومرورا بلحظة الطواف والتجوال في القرية ومنازلها ووصولا إلى إعادة ربط الطقس بمجمله بحياة القرية وأحداثها الماضية وسنتها الفلاحية ، ليصل إلى تفسير التلاحم التناقضي بين شعيرة العيد الذكورية وطقس بيلماون المغمور بالعلامات والرموز الأنثوية . إنه خطاب يكونه المجتمع عن نفسه وبنفسه وبفضله يتمثل واقعه كما يرغب هو في استخدامه .

يعتبر كتاب الأضحية وأقنعتها الحجر الأساس في مسار عبد الله حمودي . فاعتماده حاضر بقوة في كتابي الشيخ والمريد وموسم بمكة .

إنه البحث الذي سيرسي فيه الباحث أطروحته حول الأضحية

والتضحية بوصفها قتلا وإماتة للضحية وليس تذكية ونحرا طقوسيا . فعلى عكس إميل دوركهايم الذي يعتبر أن نحر الأضحية لا يكون لأجل النحر في حد ذاته بل لأجل إخراج المبادئ الحية من طبيعتها العضوية ومنحنها وضعا قداسيا وذلك عبر وهبها الآلهة ، وعلى عكس جورج باطاي الذي يؤكد على أن التضحية ليست فعل قتل بل هي هبة أو عطاء أو تنازل . مثلما أن مبدأ التدمير الذي تنبني عليه كل تضحية ، يستهدف ما هو طبيعي فيها . أنه يدمره لأجل أن ينتزعها من عالم المنفعة الانتاجية ويدخلها في عالم القداسة ، أو يخرجها من مجال الاستهلاك المعقلن إلى مجال الهدر القدسي الذي لا مصلحة مباشرة ومادية له . أن الموت الأضحوي يحل حسب باطاي بعملية القلب تلك ، التعارض الصعب بين الحياة والموت . عكس هاته الأطروحة يمثل عبد الله حمودي التضحية بالقتل ويفسر من خلالها أشكال العنف في المجتمعات العربية الإسلامية .

في موسم بمكة ، يصف عبد الله حمودي بأسلوب الكاتب تجربة الحج من بدايات الاستعداد الإداري والشعائري بالمغرب إلى لحظات السفر والوصول ومن ثم لحظات الإحرام والرجم ومنى وعرفات وأخيرا لحظة نحر الأضحية ، والتي يستعيد فيها أطروحة بحثه السالف الذكر . يقول حمودي عن تجربته البحثية الأخيرة : لقد قادني الحج الى مفترق طرق مغاير . فبينما كنت أظن أنني سأقوده إلى عالم الأنثروبولوجي فقد تلقيته كحدث غير متوقع سيطبع حياتي . . ونتيجة لذلك سيعتبر

الباحث أن الحصيلة التدوينية لتجربته الميدانية لن تكون في النهاية غير حكاية سيجمع ضمنها بين دور السارد ودور البطل .

وبالفعل فإلى جانب الأهمية الانثروبولوجية للكتاب وللتجربة يصادف القارئ بعض اندهاشات وأحكام الباحث والتي لا مبرر علمي وثقافي لها وخصوصا إذا ما وضعنا بعين اعتبارنا أن الباحث والمبحوث يقتسمان نفس الثقافة . في صفحات كثيرة من موسم بمكة يشغل حمودي سخرية في الوصف لا مبرر لوجودها سوى عند الباحث البراني من مثل وصف ازدحام وتسابق الحجاج لرمي حجارة الرجم بالتسابق المتوحش وتشبيه حجز حيوانات الأضحية بخيمات الحجز والاعتقال . . . إنها اللغة التي تذكرنا بتاريخ الأنثروبولوجيا البعيد وتجعلنا أمام السؤال : هل يمكن فعلا للمرء الباحث أن يكون أنثروبولوجي قبيلته؟

مكي بنطاهر وبول باسكون . . سوسيولوجيا الشباب القروي[1]

اتصل بي بعض الأصدقاء خلال هذا الأسبوع ، ومن دون اتفاق مسبوق ، منهم من كان من بين طلبتي الذين درستهم في مسلك السوسيولوجيا حينما كنت استاذا زائرا بجامعة ابن طفيل ، ومنهم بعض سليلي معهد الزراعة والبيطرة والمعهد الوطني للاحصاء ، من السبعينيات ، والذين تابعوا هاته الحلقات المتواضعة حول السوسيولوجيا والمغرب ، ورغم اختلاف الاهتمامات والأجيال ، كان

أن طلبوا مني جميعهم إن كنت اتوفر على معطيات وافرة نوعا ما عن معهد السولوجيا الذي تم إغلاقه في 1970م بقرار من القصر . وإذا ما كان الأمر ممكنا ، أن أخصص للموضوع حلقة أو حلقتين .

وجدت نفسي في السؤال واستعدت العقود السابقة حيث كنت أبحث بعطش عن نفس المعطيات ولم تكن سوى المعطيات التي قدمها بول باسكون ضمن الحكي عن مساره الحياتي والعلمي تطفئ بعضا من ذاك العطش . الآن ليس لدينا حول الموضوع رواية عبد الواحد الراضي (و هو من الأساتذة الاوائل بالمعهد قبل أن يحصل باسكون على الجنسية المغربية) وادريس الكتاني (قيدوم المعهد انذاك) والوكيلي الذي سيتولى المهمة بعده ، ولم يترك لنا عزيز الحبابي قيدوم عمداء الكيلة بالمغرب روايته عن عمليات التأسيس وطرق الاشتغال والتي كانت كلية الآداب وجامعة محمد الخامس طرفا رئيسيا فيها . ولم يترك الراحل الخطيبي شهادة عن المعهد حينما كان أستاذا مساعدا وبعدها حينما سيصبح المسؤول الأول عنه ، مثلمالم يقدم الطلبة الباحثين آنذاك والمدرسين رواياتهم (أحمد لحليمي ، مليكة البلغيثي ، مكي بنطاهر ، عبد الحي الديوري . . .) أضف إلى ذلك ما يمكن أن يحكيه محمد جسوس وعبد الله العروي وأهل العلوم السياسية آنذاك الذين كانوا في نفس الخانة والتصنيف مع السوسيولوجيين . . .

فكرت في طريق العودة إلى البدايات المؤسساتية للسوسيولوجيا في المغرب من دون أن نقطع نسيج العلاقة مع اهتمات وأبحاث

سوسيولوجيي الجيل الثاني والثالث ، وكان أن فضلت حل تقديم دراسات سوسيولوجية تمت قبل إغلاق المعهد وبتأطير من رواده (عبد الكبير الخطيبي وبول باسكون) . دراسات أنجزت في عقد الستينيات ، نشرت في مجلة العلوم الاجتماعية والاقتصادية (بالفرنسية) لسان حال المعهد وثمرة التعاون بين بول باسكون ومجموعته والخطيبي . وسيعاد نشرها بعد إغلاق المعهد في منشور وعدد خاصين من نفس المجلة . ستمكن هذه الدراسات الميدانية والتحليلية من تمكين جيل الباحثين الجدد من الإدراك العيني لمسارات التحول في السوسيولوجيا المغربية ، سواء على مستوى طرق الاشتغال المنهجية أو على مستوى علاقة البحث السوسيولوجي بالمجتمع أو عمق المقاربات والقدرة على المغامرة الواعية في إدراج الفعل العلمي في سياق الفعل الاجتماعي العام . وبعدها نعود للمعهد بنوع من الاستفاضة المحدودة بحدود الوثائق التي نتوفر عليها والتي تعود الى 1960م ــ 1962م . في انتظار ما قد نقوم به ، كباحثين ، في هذا المجال التوثيقي والتاريخي لسوسيولوجيا المغرب .

ما يقوله 266 شابا قرويا هي الدراسة الميدانية الموسعة التي أنجزها بول باسكون ومكي بنطاهر في عقد الستينات من القرن الماضي ،(مكي بنطاهر أستاذ السوسيولوجيا بجامعة محمد الخامس ، خبرناه ونحن طلبة باحثين في الشعبة ، وبالضبط أثناء التهييء لدبلوم الدراسات المعمقة ، شخصيا اشتغلت معه في موضوع صورة المغرب

في الاثنوغرافيا الفرنسية من خلال رحلات أو غستو موليبراس وشارل دو فوكو وادمون دوتي . وكنت سأسجل معه بحث ديبلوم الدراسات العليا حول آليات الانتقال والتحول من الزاوية إلى الحزب في المجتمع المغربي . لكن فتح السلك الثالث بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس أنقذني من صراعات القط والفأر التي كانت دائرة آنذاك داخل السلك الثالث بين مكي بنطاهر ومحمد جسوس والتي تعتبر جزءا من التاريخ الخفي والعميق للسوسيولوجيا داخل الجامعة المغربية . والتي أدت بالكثيرين إلى الانسحاب من قاطرة البحث بل ومغادرة المجال السوسيولوجي نحو الادارة او الفن أو الزهد في العلم والاقبال على الدنيا) وتضمنت مجوعة الميدان كلا من عبد الحي الديوري (محلل نفسي باحث في البعد الرمزي للتمظهرات الطقوسية المغربية ، المعهد الجامعي للبحث العلمي) وم . المعروفي ، وب . المونصف ، وم . الرشاتي . وت . أكومي ، وم . العمراني ، وم . جايدان . توزعت الدراسة إلى تأطير نظري ومنهجي بالغ الأهمية ، يتضمن تحديد طبيعة البحث ومنهجيته وتيماته وطبيعة العينة المستهدفة ، لتمنح بعد ذلك الكلمة للشباب في جميع المحاور التيماتية . وبعد تنظيمها وتصنيف معطياتها ، يصل البحث إلى ما سمته الدراسة بإضفاء الطابع المفاهيمي عليها (المفهمة) واستخلاص نتائجها . ولنا في الحلقة القادمة التفاصيل .

ما يقوله 296 شابا قرويا مغربيا[2]

تشكل هاته الدراسة الميدانية شهادة على بداية التقعيد للسوسيولوجيا بالمغرب، كعلم ينشد حسب التقديم التأطيري الذي كتبه الخطيبي سنة 1971م لهاته الدراسات والأبحاث، تملك الزمان التاريخي وتملك المكان والمعرفة.

تملك الزمان التاريخي يتم تدريجيا عبر توسيع الحقل التاريخي الذي يمكن السوسيولوجي من الإمساك ببذرة تكون البنيات الاجتماعية وكيفيات إنتاجها أو إعادة إنتاجها. يتعلق الأمر بزواج السوسيولوجيا والتاريخ والذي لا مفر منه في مجتمع مثل مجتمعنا، حيث الفقدان لصيق بجزء على الأقل من هويتنا. تملك المكان (و هو استراتيجية هذه الدراسة) لأننا نعرف بأن الحقل المكاني الذي يؤسس كياننا الجسدي وبنياتنا الاجتماعية قد تعرض لعنف الضربة الكولونيالية وكذا لعنف السيطرة الداخلية. يجب إذن أن تظهر السوسيولوجيا التراتبات والطبقات والمؤسسات وأنماط السيطرة الخارجية التي أفقرت الفلاح بنزع أراضيه وكيف تنفلت المدينة من ساكنتها ويدفع بالناس المجردين من مجالهم الحيوي والحياتي إلى الارتماء في أحضان الرأسمال الخارجي. ثم تملك المعرفة بالمعنى الذي يجب فيه مراجعة وإعادة تاويل المعرفة الغربية التي تسكن وعينا سلوكنا. ومواجهتها بتنظير نقدي قادر على جعلنا ذوات واعية بامكانياتها الخلاقة من جهة وفي الآن نفسه واعية بهشاشة كل خطاب وطني خالص. لهذا السبب يقول الخطيبي دائما

تعبر هاته الدراسات عن هاته الحركة النقدية وهي في بداياتها ، لكن من المؤكد أن تتلوها أبحاث أقل وصفية . كلمة الخطيبي هاته مؤرخة بـ 28 نونبر 1971م (سنة بعد إغلاق المعهد وتوقيفه عن التدريس إلى جانب رفاق جيله ، عبد الله العروي وعبد الواحد الراضي والجغرافي محمد الناصري ومحمد جسوس . .) .

تملك المكان والزمان والمعرفة هو مبتغى اختيار الدراسة للعالم القروي وللشباب كعينة والسوسيولوجيا كمرجعية علمية . يقول بول باسكون ومكي بنطاهر عن طبيعة بحثهما بكونه ليس بحثا في استطلاع الرأي أو المواقف والمعتقدات والسلوكات . لم يرغب الباحثان الدخول في تبيان الفوارق الإشكالية والمنهجية بين هاته الأنماط الأربعة من البحث السوسيولوجي وكذا عدم تصنيف بحثهما داخل إحدى خاناتها . سبب ذلك كون البحث السوسيولوجي مازال عظمه طريا ومؤهلات الباحثين الميدانيين المتواجدين بالمغرب نحيفة والتجربة البحثية الشخصية غير كافية ، مثلما أن المعرفة القبلية بالمبحوثين ضعيفة . لذلك تقول الدراسة : من دون بهتان على القارئ ، ما قمنا به لا يعدو استكشافا لوسط بكر وإضاءة لموضوع غير معروف بشكل جيد . أما بخصوص العنوان فإننا لم نجد عنوانا آخر غير ما يقوله 296 شابا قرويا . إننا يضيف الباحثان في وضع شبيه بصندوق بريدي حرص بكل ما في وسعه على أن لا تضيع منه في الطريق الثمانية آلاف (8000) إرسالية التي وضعها شباب العينة فيه . مادة

ضخمة تستدعي جهدا في الاشتغال يتطلب احتراسا كبيرا . فقواعد البحث الإحصائي لم تطبق بدقة كافية وثانيا لأن القول بأن هذا ما يقوله الشباب القروي غير قائم بشكل سليم على اعتبار أن 296 شابا لا يسمح بإرساء تمثيلية العينة لمجموع الشباب القروي . وثالثا لأن الاستجواب المطبق والمنهج المتبع لم يخضعا للتجريب كي نضفي عليهم صفة العلمية والصدق والصلاحية .

هل يتعلق الأمر بعمل غير علمي ؟ أم بدرس فعلي حول شروط البحث العلمي الميداني؟ أم بترسيخ للأخلاق الرفيعة للبحث العلمي وعلى رأسها احترام القارئ وطبيعة التعاقد الضمني بينه وبين الباحث؟

نقص الشروط في هاته الدراسة الميدانية لا تفاوض معه ، إنه حاضر وهو جزء من عملية التقعيد للسوسيولوجيا في التربة المغربية ، لذلك تم تحويله إلى نقطة قوة وذلك عبر عرضه وإظهاره وإشهاره ومن ثم استيعابه منهجيا وميدانيا . لقد تمكن البحث من التعرف أكثر على الشباب القروي وانطلاقا من خلاصاته يمكن تكوين فكرة عن أرائه ومواقفه وخصوصا حول منتظراته وطموحاته . مثلما بالإمكان الارتكاز عليه لبلورة إشكالية بحث آخر أو تهييء تدخل عملي .

بناء على كل المعيقات المذكورة سينحث الباحثان منهجية غير مألوفة كثيرا في حقل السوسيولوجيا الميدانية . لأن العينة مشكلة من شباب أميين وبالكامل أو مالكين لتكوين بسيط لا يتجاوز حدود

تمكنهم من التعبير الكتابي في حدوده الدنيا فإن الاختيار المنهجي سيقع على المقابلة المباشرة . وبما أن جهلنا ، يقول الباحثان ، بالكيفية التي يجب أن نصوغ بها أسئلتنا وخوفنا أن نطرح أسئلة مسترسلة وغير فارقة . فقد اخترنا المقابلة شبه الموجهة بأسئلة مفتوحة . كما أن عجزنا عن إنجاز المقابلة الفردية سيقودنا إلى اختيار المقابلة شبه الجماعية . في المجموع تشكلت ملامح المنهج بوصفه بحثا بالمقابلة المباشرة شبه الجماعية وشبه موجهة عبر اعتماد الأسئلة المفتوحة المستهدفة لموضوعات محددة . يقول الباحثان : المقابلة شبه الجماعية هي ابتكار منا وعلينا تبرير ذلك للباحثين السوسيولوجيين المنشغلين بأمور المنهج . وفي الأمر سخرية خفيفة لأن المطلع على الشروط التحتية للبحث سينصب اهتمامه على أمور أعمق وأكبر شأنا .

ستمحور الدراسة مقابلاتها على موضوعات عشر (المدرسة وأوقات الفراغ والصداقة والشغل والبادية- المدينة والشباب والجنس والمخزن والأسرة- المرأة والماضي والحاضر) مثلما أن اللغة الدارجة ستكون وسيلة التواصل منذ البدء إلى المنتهى . موضوعات المقابلات تم تحديدها بعد إجراء مقابلات أولية مع شباب أربعة دواوير خلال شهر كامل . ونظرا لأن المواضيع المنتقاة على صلة فيما بينها فقد قرر الباحثان قطع صلاتها حتى لا تتداخل الآراء والمواقف . ونتيجة لذلك تم إبعاد موضوعة المدرسة عن الشغل والمخزن عن الأسرة والجنس عن المرأة والمال عن الشغل . وقد تمت المقابلات في كل تيمة بفضل

مجموعة من الأسئلة ، بحيث خصصت أربعة إلى خمسة أسئلة شبه مفتوحة لكل موضوع . وقد كانت الأجوبة متفاوتة حسب طبيعة الموضوعات فكان أن تم تحصيل 200 جوابا فى المعدل العام لكل سؤال . كيف تمت معالجة هذا الكم من الأجوبة وما هي الخلاصات الجزئية التي تم استنتاجها؟ انه موضوعنا القادم .

الشباب القروي . . الشغل والمال والجنس والزواج(3)

تمحورت الموضوعات التي أدار بها بول باسكون ومكي بنطاهر والمجموعة المشتغلة تحت تأطيرهم وتوجيهم ، مقابلاتهم مع الشباب القروي حول عشر موضوعات (المدرسة وأوقات الفراغ بهواياتها والصداقة والشغل والمدينة- القرية والجنس والشباب والمخزن والمال والأسرة والمرأة والماضي- الحاضر) . وقد اعتبرت الدراسة سواء من خلال المقابلات الأولية ، أو عبرالبؤر الجاذبة بشكل أكبرلشباب أن الشغل والمال والجنس والمرأة الزوجة المفترضة ، تشكل الانشغالات الكبرى للشباب القروي المبحوث خلال عقد الستينات من القرن الماضي . بناء على ذلك سنركز عرضنا على هاته الموضوعات وذلك لتشكيل فكرة كما يقول باسكون عن كيف يتصور هؤلاء الشباب العالم عموما وعالم الشغل والمال والجنس والمرأة بشكل خاص .

الشباب والشغل

الشغل ، يقول الباحثان ، يعني بالنسبة لنا نشاطا منتجا ، وهو بالنسبة للبالغين القرويين انشغال (شغل بالدارجة المغربية) لكنه منتج . أما بالنسبة للشباب القروي ، إنه عناء (كرفي) وواجب أخلاقي نحو الآباء . وهو في الأخير الوسيلة التي بفضلها يتم جني المال . الشغل أو العمل في العالم القري متغيرة تابعة للسن وليس العكس . فالسن هو ما يحدد نوعية العمل الذي يجب القيام به . لذلك تقدم الدراسة المراحل العمرية ومعها نوعية الأعمال التي يفرضها الوسط القروي :

- من خمس إلى سبع سنوات : هي لحظة بداية مغادرة الطفل لعالم أمه واحتكاكه بالمحيط الخارجي . ويكون الذهاب إلى المسيد ورعي بعض رؤوس الماشية قرب المنزل ومرافقة الأم في بعض أعمال جمع الحطب وجمع بيض الدجاج وحمل الغذاء للأب في الحقل . . هي الأنشطة الكبرى التي يزاولها .

- من سبع إلى إثنا عشرة سنة : مساعدة الأب في الأعمال الفلاحية ورعي الماشية والاهتمام بشربها وكلئها وفي بعض الأحيان الحضورعند بعض الحرفيين لتعلم الحرفة . كل ذلك تقول الدراسة من دون أي مقابل مالي .

- من إثنا عشرة إلى خمسة عشرة سنة : مع هذا السن يبتدئ الشاب كسب بعض النقود . أما عمله فيتسع ليشمل الحرث وجني

الزيتون والمشاركة في أعمال الحصاد وبيع بعض المنتوجات والدواجن في السوق . في هاته السن يكون الشاب قد انقطع عن الدراسة ويبدأ في رفض مهمة الرعي (السارح) .

– من خمسة عشرة سنة فما فوق : وهي لحظة الرجولة . علاماتها ، الصيام العلني لرمضان والرفض الكلي لرعي الماشية (السرحة) والبحث بكل الوسائل عن عمل . العمل في الحدادة أو في أوراش البناء أو أي عمل يبعده عن ممارسة الأعمال المنزلية والعائلية . (بيع السجائر بالتقسيط في السوق ، أو بيع الماء أو الحلاقة . . .) وبسبب ذلك تقول الدراسة ، كثير من الشباب يعرفون البطالة لأنهم يرفضون العمل العائلي وفي الحين ذاته لا يجدون عملا آخر .

خلاصة الدراسة في هذا الباب الشغل بالنسبة للشاب القوي هو المال أولا . إنه عمل بأجرة محددة ومعروفة سلفا ومن المفروض أن يكون عملا دائما وليس مؤقتا . إنه تحصيل النقود بشكل منظم وقار . لذلك فإن المثال المأمول بالنسبة للشاب القروي هو الوظيفة العمومية (الخدمة مع المخزن) .

الشباب والمال (الفلوس)

المال أو الفلوس هما الكلمة السحرية التي تفتح جميع الأبواب ، حسب الشباب القروي . كل شئ يمكن تحقيقه بالمال . يعلق الباحثان على هذا بالقول : المجتمع المغربي ليس فيوداليا أو رأسماليا أو دولتيا

أو من نمط آخر . إنه في نظر الشباب القري مجتمع ميركانتيلي : لا أخلاق تعلو على أخلاق المال . في القرية والدوارلا الديبلوم أو المعرفة التقنية أو الآداب والتربية تشكل أساس الأخلاق . المال هو الأساس . كل الشباب يجمعون بتعابير مختلفة على كون المال هو المدخل الضروري للتمدرس ، للحصول على منحة والنجاح في مبارة مهنية عليك أن تكون صاحب مال .لكي تحصل على البطاقة الوطنية وجواز السفر لا بد من الفلوس . كي تتزوج أو تقبل بك فتاة لا بد أن تكون معك الفلوس . لكي تتمتع بحقوقك وتحصل عليها خصك لفلوس . . وباختصار أي شيء وكل شيء يحتاج لفلوس . إنه كلام الشباب القروي .

الشباب والجنس

ما الشباب؟ في أي سن لا نعود بالقرية المغربية أطفالا؟ في أي سن نصبح فعلا بالغين وراشدين؟ وكيف يعيش الشاب القروي في ظل الحظر الشامل للجنس بالقرية والدوار ، مراهقته الجنسية؟ إنها الأسئلة التي تطرحها الدراسة والتي بغيت من ورائها أولا التنبيه إلى ضرورة التمييز هنا بين الشاب والشابة . الفتاة القروية لا تعرف مرحلة المراهقة ، إنها تعبر مباشرة لمرحلة الزوجة والأم (يستحضر هنا بول باسكون ومكي بنطاهر إحدى نتائج الدراسة الميدانية لمليكة البلغيثي والتي سنعرضها لاحقا . تقول هاته الدراسة بأن 50 في المائة من

الفتيات القرويات يتزوجن قبل مرحلة البلوغ و37 في المائة في السنتين الأوليتين بعد البلوغ) . أمام وضع المراقبة المتشدد على الجنس في القرية والدوار يلجأ الشباب حسب الدراسة إلى سلوكات جنسية غير سوية . من أصل 266 شابا قرويا 151 أجابوا عن السؤال : ماذا تفعل بين مرحلة البلوغ والزواج وكان أن أجاب 4 العادة السرية و12 ممارسة الجنس على الحيوانات و23 المثلية الجنسية و39 الجنس الميركانتيلي ، أي مع المومسات و8 اصطياد الفرص من دون مقابل مالي ، و6 عبر الاغتصاب و11 الاكتفاء بالكحول والسجائر والكيف .

الشباب والمرأة

جل شباب العينة المفحوصة عازبون وفي الآن نفسه هم في سن الإقبال على الزواج . لذلك تمحورت الأسئلة بهذا الشأن حول المرأة ، الزوجة المفترضة : هل هي الزوجة أم أم الأطفال أم خادمة البيت أم امرأة المضاجعة أم هي كل ذلك؟ داخل 120 إجابة واضحة 50 في المائة اعتبروها وسيلة إنتاجية (أم الدراري) و25 في المائة خادمة البيت و10 في المائة مهمتها إنجاب وتربية الأطفال . وما تبقى تناثر بين هذا الجانب أو ذاك . أما بخصوص مواصفات الزوجة المفترضة فقد فضل 55 في المائة أن تتمتع بسلوك اجتماعي حسن و31 في المائة أن تتصرف بحسن مع الزوج و14 في المائة أن تتصرف بحسن مع أب وأم الزوج . ما تستنتجه الدراسة بهذا الخصوص هو أولا ، على

المرأة أن لا تتكلم وتتحدث بأي شيء يخصها (لا شكوى ولا تشكي ولا تمني . . .) وثانيا عليها الخضوع للزوج وثالثا عليها التفاهم بجميع الطرق مع أب وأم الزوج . إنها القواعد الثلاث التي طغت على آراء الشباب القروي والتي تعكس حسب الدراسة سيادة النمط الآبوي أو البطريركي على العلاقات الاجتماعية والأسرية .

ماهي خلاصات هذا البحث العامة؟ وما هي قيمته العلمية والاجتماعية؟ إنه ما سنعرضه في العدد القادم .

استنتاجات بول باسكون حول الشباب القروي

في الحلقات السابقة عرضنا التأطير النظري والمنهجي للبحث الميداني الذي أجراه كل من بول باسكون ومكي بنطاهر على عينة من شباب القرى المغربية (60 شاب من دوار ولاد بوعزة ، مركز ولاد بورحمون دائرة الفقيه بن صالح ، عمالة بني ملال . و84 شابا من دوار الغراريين ، مركز دار الكداري ، دائرة سوق الأربعاء . عمالة القنيطرة . و86 من دوار التصبيحة ، مركز تاملالت ، دائرة قلعة السراغنة ، عمالة مراكش . و66 شابا من دوار سيدي الرقيق . مركز وادى مليل دائرة وادى مليل . عمالة تازة) وكذا موضوعات البحث التي كانت مجالا للمقابلات الميدانية . وقد ركزنا عرضنا للمقابلات ونتائجها الجزئية في المحاور الأربعة التي اعتبرتها الدراسة محور الانشغالات الكبرى للشباب القروي (الشغل والمال والجنس والمرأة) . الآن سنعرض لما تم

تحصيله واستنتاجه من 8273 جوابا التي قدمها الشباب المبحوث .

إنها استخلاصات مصاغة بضمير المتكلم لذلك نسبناها الى بول باسكون ، وهي إضافة إلى ذلك حاملة لأسلوبه وأفكاره . يقسم باسكون النتائج الكيفية إلى ماكان يحمله من أفكار وتصورات وأحكام قبل وأثناء البحث وما سيكتشفه وسيواجهه من حقائق بعد انتهاء البحث .

– قبل البحث ومع بداياته : يعتبر بول باسكون الانتقال من مرحلة تلقي الأجوبة إلى مرحلة مفهمتها في شكل آراء عملية صعبة . فهي لحظة شبه سحرية وقابلة للجدال والنقاش . فإذا ما كانت عمليات التفريغ والتصنيف والعرض ذات طابع نمطي ، بإمكان باحثين مختلفين إنجازها بشكل متطابق ، فإن عملية المفهمة هي صرح وبناء يرتكز على شخصية كل باحث . فصورتي عن هؤلاء الشباب يقول باسكون على صلة بكيفيات وجودي في العالم ، وبمعتقداتي ومصالحي وإيديولوجيتي وطموحاتي . والأمر سيكون هو هو بالنسبة لكل باحث آخر أكان على وعي بذلك أم لا . صدقية واستقامة السوسيولوجي وأخلاق العلم تتطلب بباسطة ، حسب باسكون ، أن يصرح بتوجهاته الفكرية وبكيفيات تصوره للأشياء أثناء بناء الصرح السوسيولوجي لكل عمل ميداني . يقول باسكون :

مع مبتدئ البحث تصورت أنني امتلك الفرصة لتملك عميق لأحد عناصر فهم وتفهم الإدانات العامة من طرف الشباب للعالم

الذي يعيشون في ظله . فأنا أنتمي للسوسيولوجيين الذين يعتقدون أن الشباب يشكلون محرك المجتمعات . بنفس القيمة التي كانوا عليها سابقا في الصين مع الفلاحين وفي أوربا مع الطبقة العاملة والمقاولون بالولايات المتحدة الأميريكية والمجاهدون مع عقبة بن نافع . . . من دون شك ، شباب المغرب مختلف ومتنوع . هنالك الطلبة وتلاميذة الثانوي بطموحاتهم المتوازية مع وسائلهم . والتلاميذ والمتعلمين المطرودين من الدراسة والذين يلجون عالم اليأس وأبناء الفلاحين غير المتمدرسين المتروكين لأقدار التطور التقدم . مواقف هاته المجموعات لا تخلوا من التناقض . لكن حينما نشغل موقعا في النظر أكثر تجريدا يمكننا القول أنهم يشكلون وحدة في مواقفهم من التقدم وتفاؤلهم بخصوص المستقبل . إنهم يعتقدون في التقدم المستمر للإنسانية وبفضل ذلك يختلفون عن آبائهم . هاته الأفكار التي تنتمي في الأصل إلى المجتمع الصناعي ، هي أفكار شباب يعيشون في المغرب . لقد بدا لي الأمر مميزا بالجدة ومتناقض تماما مع الأفكار التي تحملها المجتمعات القيدلية والأبوية عن ذاتها . أختم في هذا الباب ، يقول باسكون ، بكون الشباب بإمكانه أن يكون ، من الوجهة الفكرية ، الركيزة الحاملة للمجتمع الجديد وفي الآن نفسه العنصر المحرك للمجتمع الحالي ، هذا في حالة ما منحته سيرورة الإنتاج ضمانة لتطبيق أفكاره .

إنها الأحكام والأحكام المسبقة والمعتقدات التي كان بول باسكون يحملها حول الشباب قبل الانخراط في هذا البحث ، وبعده ستتغير

الصورة وستتضح أكثر الحقائق وتنقلب كثير من المعتقدات الفكرية والنظرية بخصوص الموضوع .

– استنتاجات باسكون بعد البحث : يكثف البحث خلاصاته حول الشباب المغربي القروي في خمس خلاصات كبري :

1- الشباب القروي اصطلاحي والمقصود بذلك هو أنهم ينتقدون بشدة وبراديكالية المدرسة والمجتمع وبتعابير متنوعة ولكنهم لا يضعون اليد أبدا على التنظيم الذاتي لأشياء . إنهم يطالبون بتحسن الأمور في السياق الراهن وليس تحسنها بأشكال وكيفيات أخرى . نفس الأمر ينطبق على آرائهم ومواقفهم من الأسرة . سلطة الأب لا توضع موضع تساؤل ومعها الدور الأساسي للأسرة . في حين تنصب الانتقادات على المرأة . وهو ما يجعلهم في انسجام تام مع الوسط الذي يحيون فيه .

2- إنهم يضفون طابعا مثاليا على الأمن ، ويتجلى ذلك في كون المناقشات التي تمت حول الشغل والمال والدولة كمثال ظل افقها هو دولة الموظفين القوية والقادرة على بعث الأمن والمردودية . وفي كل انتقاداتهم للرشوة والظلم وعدم اسقرار الشغل ، لم يقدموا ولو حلا او اقتراحا لمشاكلهم . إنهم ينتطرون من الآخر (الدولة) أن تقوم بمعالجتها .

3- إنهم متفائلون . يبدو غير ذي معنى الحديث عن التفاؤل . إننا بصدد فئة الشباب الموطن الفعلي والطبيعي للتفاؤل . لكن مع ذلك ،

لقد كان الشباب يتحدثون عن جل الموضوعات بنوع من البرود، بينما حينما وصلنا إلى سؤال المستقبل غمرهم التفاؤل. واختلطت طموحاتهم ومنتظراتهم بنوع من الهذيان. إننا نحس وكأنهم ينتقمون من حاضرهم عبر جعل المستقبل عصرا ذهبيا. هذا الاعتقاد في مستقبل زاهر، ألا يمكن اعتباره بمثابة مخدر أو منوم لإخماد الإحساس الحاد للشباب بطموحاتهم وفي الآن نفسه عدم امتلاكهم القدرة على تحقيقها؟ الاعتقاد في كون الدولة مستقبلا ستعالج كل المشاكل. ألا يمكن اعتباره تكريسا للنزعة الانتظارية؟ إن التفاؤل الزائد للشباب بالمستقبل ليس غير نوع من الهروب إلى الأمام، أو أنه يعكس تحفاظتهم من أسئلتنا.

4- الشباب لا يشكل طبقةاجتماعية وذلك لسببين. الأول هو أن الانتماء لجماعة الشباب انتماء انتقالي ومؤقت. إننا نلج هاته المجموعة بفضل السن والعمر ونغادرها عبر الزواج. وثانيا لأن الشباب ينتمون مسبقا لطبقات اجتماعية مختلفة لا تمثل الغالب مصالحهم.

5- الشباب في طريقه إلى أن يصبح محرك المجتمع: لم يكن ممكنا لهاته الدراسة، يقول بول باسكون، أن تقدم فقط المنتظرات الرائعة للشباب والطموحات الحالمة، بما أن المجتمع ليس بإمكانه تحقيقها. لقد وضع البحث الأصبع على العدوانية والنقد الراديكالي المميزتين للشباب حينما يغمرهم الغضب والحقد على أوضاعهم. عدوانية ونقد عنيف يترجمانه بالارتماء في عالم الانحراف (السرقة

والمخدرات . .) في حالة ما إذا لم يحقق لهم المجتمع الشغل والمال ومقومات الحياة . (يلا مجبرته لخدمة وما ناكل غدي نسرق ولا ندير شي حاجا اخرى) . هكذا يواجه الشباب القروي عنف االمجتمع وتوحش الشروط بعنف مضاد لكنه سلبي حسب الدراسة .

يقول باسكون : لا أعتقد أن الشباب سيحولون ويغيرون المجتمع لأنهم شباب . لكن وبالتدريج ، إن عاجلا أم آجلا سيصبحون محط اهتمام كل الفاعلين الاجتماعيين والسياسيين . وسيبحث عنهم هؤلاء بحكم تقاربهم العمري للمطالبة بالتمدرس والشغل وحرية التعبير والتواصل بين الجنسين والحد من الرشوة . . .

إنها خلاصات غير مهادنة أو منافقة أو مجاملة للشباب ، لذلك فهي تصلح لإعادة قراءة كل أشكال التملق الذي يمارسه بعض الباحثين في الموضوع وكذا الفاعلين السياسيين والمدنيين تجاه هاته الفئة المليئة شروطها ورؤوسها بالمتناقضات .

مليكة البلغيثي . . علاقات النساء ووضعية المرأة في الأسرة القروية .

مليكة البلغيثي من السوسيولوجيات المغربيات اللائي اشتغلن مبكرا على وضعية المرأة . لقد أنجزت دراستها الميدانية هاته في نفس الفترة التي كان فيها بول باسكون ومكي بنطاهر يشتغلان على الشباب القروي وأحمد لحليمي يشتغل على الجماعات القروية وعبد الكبير

الخطيبي على الدولة والطبقات الاجتماعية وغريغوري لازاريف على التغيرات الاجتماعية والتنمية في القرى المغربية . كل هاته الدراسات وغيرها أنجز بين 65 و1969م وهي الفترة التي كان فيها الخطيبي مديرا لمعهد السوسيولوجيا .

هدف هاته الدراسةالميدانية ، حسب البلغيثي ، تحصيل معرفة علمية بوسط المرأة القروية وبأنشطتها العملية . ولأجل تحقيق ذلك كان لابد من تحصيل معرفة ميدانية بأعمالها ومهماتها وأدوارها داخل المنزل وخارجه وكذا علاقاتها بالوسط الاجتماعي الذي تعيش فيه ، وبالخصوص علاقاتها الأسرية . أما فرضيتها الكبرى والموجهة فتتمثل في المرأة تشكل في الآن ذاته وحدة اجتماعية منسجمة ومختلفة . تقول الباحثة ، إذا ما ارتكزنا على التمييز والتفريق الجنسي بين الرجل والمرأة فإننا سنجد بأن جميع النساء المغربيات والقرويات بالخصوص يشتركن في وضعية الدونية وهو ما يضفي عليهم المودة كجماعة اجتماعية ، لكن إذا ما اقتربنا أكثر فسنكتشف الاختلافات الاجتماعية ، بدء باللباس كشارة تمييز (لباس زيجات الأعيان ليس هو لباس زيجات الخماس) وانتهاء بعامل السن والوضعية الاجتماعية والرمزية لأسرة الزوجة وكذا للزوج . هذا الاختلاف من المفترض مراعاته أثناء عملية البحث . منهجيا اعتمدت الباحثة على المقابلات الحرة والتي دارت مع 126امرأة ينتمين لثلاثة دواوير من قرية تاساوت بأحواز مراكش . (دائرة العطاوية وأيت صهريج) وذلك حول موضوعات عدة أهمها :

أنشطة المرأة العملية بالعلاقة مع وضعية عائلتها الأصلية ووضعية زوجها . الزواج والبلوغ والخصوبة والعقم والمرض . تعدد الزوجات . العلاقة داخل الأسرة بين الزوجة وحماتها . تجريد المرأة من الإرث . حدود تحركات المرأة في المجال الجغرافي والاجتماعي وأخيرا أنواع العقاب الذي تتعرض له المرأة االزوجة .

- بخصوص المرأة والزواج : كشف البحث أن 50 في المائة من المبحوثات تزوجن بسنتين أو ثلاثة قبل بلوغهن و40 في المائة مباشرة بعد بلوغهن . وإذا ما اعتبرنا الأجوبة المبهمة فإننا سنجد أن 55 في المائة تزوجن قبل البلوغ و44 في المائة مباشرة بعده . تقول إحدى المستجوبات : حينما تزوجت لم أكن بالغة . وقد ولدت طفلي الأول قبل دم الحيض الأول . وتقول أخرى : لقد بقيت في بيت زوجي سنتين قبل أن أصوم رمضاني الأول .

- بخصوص خصوبة المرأة القروية : في القرية المغربية ليست الخصوبة وظيفة بيولوجية وطبيعية للمراة المتزوجة ، بل إنها عامل محدد وحاسم في الوزن الرمزي والاجتماعي الذي تشغله داخل الأسرة . فحينما لا ترزق الأسرة بالأطفال تكون الزوجة هي المسؤولة عن ذلك . وبما ان عدد الأطفال التي ترزق بهم المرأة يكون مهما في رسم وضعها داخل الأسرة فإن العقم يشكل أكبر الأخطار المهددة لتلك الوضعية . المرأة من دون أطفال هي عبئ يكون مآله حسب الدراسة إما زواج مرة جديدة وفي الأمر نوع من العقاب أو إعادة المرأة إلى أهلها ولو

بعد سنوات طوال من الزواج . تقول إحدى النساء المستجوبات التي تعيش مع أخيها : لو كان لدي أطفال لكنت الآن في خيمتي .

– تعدد الزوجات : ليس تعدد الزوجات بالنسبة للمرأة القروية هو ما يخيفها من حيث المبدأ ، لكن شكل ومبررات حدوثه وكذا نتائجه الاجتماعية على وضعيتها في الدوار والقرية (تزوج عليها له ألف معنى في الدوار والقرية وكلها تصب في تدنيس وتحقير المرأة وتحميلها مسؤولية ذلك أما بحكم عدم كفايتها الجنسية أو العملية أو الأخلاقية أو الجمالية . .) ومن بين المحفزات الكبرى على تعدد الزوجات ، حسب البحث ، نجد حافز الرجل في توسيع عائلته وكسب قوى عاملة جديدة وقوية وعدد من الأطفال الذكور أكبر . والعقم الذي يكتشفه الزوج بعد الزواج ثم حصول مرض الزوجة المزمن أو المتكرر ، والمقدرة المادية للزوج . فإذا ما كان الرجل يمتلك الكفاية المادية للإعالة فله كامل الحق في استبدال زيجاته والزواج من فتاة تمتلك مواصفات الجمال والقوة الجسدية والصحة وأخلاق الخضوع . وأخيرا تعدد الزوجات الناتج عن استرتيجية الزوج لإرساء والحفاظ على التوازن داخل أسرته . في هاته الحالة تقول الباحثة يكون الزواج المتعدد ردعا للزوجة أو الزيجات السابقات وتلقينهن درسا في نتائج عدم خضوعهن للزوج . وتهديدا مستمرا لهن .

– الزوجة والحماة : يشكل حضور الحماة بالنسبة للزوجة مضاعفة الوصاية . مفروض عليها الخضوع للزوج ولأمه . لهذا تكون علاقات الزوجة بأم زوجها متوترة في الغالب الأعم . إنه توتر ناتج حسب البحث

عن مشكلة تقسيم العمل والأدوار بينهما في البيت وخارجه .

- عقاب المرأة : تتوزع أشكال معاقبة المرأة القروية إلى العقاب الجسدي مجسدا في الضرب والعقاب الرمزي مجسدا في حرمانها من زيارة أسرتها واقتناء بعض من احتياجاتها الخاصة أو إرسالها لمدة قد تطول أو تقصر إلى بيت أهلها . وتركز الدراسة أسباب ذلك في عدم طاعة المرأة للزوج أو سذاجتها وعدم حسن تصرفاتها . أما المتكفلون بتنفيذ العقاب فإنهم إما الزوج أو حمو الزوجة وحماتها .

بناء على كل ذلك يرسي البحث خلاصة كبرى مفادها ، أننا كي نعرف بشكل دقيق وضع المرأة ، علينا ألا نكتفي بوصف مختلف مظاهر حياتها اليومية ، بل يجب أن نتملك طبيعة العلاقات المهيمنة في فعل الزواج وكذا البحث في وضعية الوصاية التي توجد ضمنها المرأة والتي ترمي بها في صلب العلاقات الاقتصادية وا لاجتماعية ا لمسيطرة في المجتمع القروي .

كليفورد كيرتز : المغربي وسؤال المعنى

لم يتوقف الأنثروبولوجي الأميريكي عن الإنتاج والعطاء إلى حدود وفاته قبل ثلاث سنوات . أقام بمدينة صفرو الصغيرة والجميلة وبالأطلس طيلة عقد الستينات وأثارته ظاهرة الأسواق الصغيرة بهاته البلدة فأنجز بحثا حول سوق صفرو : اقتصاد البازار . وبعدها انتقل إلى الاهتمام بالبعد الثقافي العام للمجتمع المغربي عبر دراسة الإسلام وتمظهراته : ملاحظة الإسلام ، ثم العمل على إدراجه ضمن المقاربة

المقارنة وذلك عبر مواجهته بالكيفية التي يحضر بها لدى ساكنة جافا عاصمة أندونيسيا وبالتالي إلى جانب دراساته الميدانية سيسند كيرتز مساره العلمي بدراسات نظرية وإبستيمولوجية حول طبيعة العلاقة بين المعرفة المحلية والمعرفة الكونية وكذا تفصيل الصلات بين المعرفة اليومية أو الحس المشترك والمعرفة العالمة فلسفية كانت أم دينية .

يعتبر كيرتز من أعمدة الأنتروبولوجيا الثقافية المعاصرة . وبما أن لفظ الثقافة يغمره التباس كبير فقد توقف كيرتز عنده لتحديده وإيضاحه . في سياق ذلك سيلجأ للسوسيولوجيا الفيبيرية وسيقول مع هذا الأخير بأنه إذا كان الإنسان حسب فيبر حيوانا مغلفا وملفوفا بالدلالة التي ينتجها بنفسه فمن المفروض على الانثروبولوجيا ان تهتم بهاته الدلالات . وبفضل ذلك ستصبح الثقافة نسقا من المعنى والدلالة يتطلب البحث والفهم والتأويل . سيقلب كيرتز إلى جانب سوسيولجيين من مثل بير بورديو وأنثروبولوجيين من عيار جورج بلانديي التحديدات الكلاسيكية للعدة المنهجية الأنتروبولوجية . ستتغير العلاقة بين الملاحظ والملاحظ والعلاقة بين البحث ومفهوم الميدان البحثي مثلما ستتغير معادلة العلاقة بين الوصف الميداني وعملية التحرير أو الكتابة .

سيبتعد كيرتز بدراسة العالم الاجتماعي عن كل من الوضعية والنظرية الانقسامية ، وسيستثمر النظرية الفينومينولوجية كما حضرت عند ألفريد شوتز بخصوص المعرفة اليومية وبول ريكور والياد

وكودولوليي بخصوص الرمز وكيفيات تفكيره وفهمه وتأويله . وبفضل ذلك سيعتبر من مؤسسي الأنثروبولوجيا الرمزية وكذا السوسيولوجيا الفينومينولوجية أو الايثنوميتودولوجيا .

في مؤلفيه المعرفة المحلية والشاملة والحس المشترك يقدم كيرتز رؤية جديدة للمعرفة اليومية تتجاوز التعارض التقليدي بينها وبين المعرفة العالمة يقول كيرتز بأن المعرفة اليومية تستهلك لكنها لا تفكر على الرغم من أنها تتمتع بنفس قواعد وآليات المجالات الأخرى ، إنها معرفة طامحة إلى الحقيقة وإدراك للأشياء كما هي . إنها نسق ثقافي حامل للمعنى والدلالة . ينح كيرتز في إبرازه لمعقولية المعرفة اليومية أمثلة عديدة من داخل تجاربه الميدانية سواء باندونيسيا أو بالي أو المغرب . ليست المعرفة اليومية أدنى من المعرفة العالمة في شيء ، إنها حسب كيرتز معرفة مختلفة ليس إلا .

في أحد فصول المعرفة المحلية والشمولية . وعلى طول كتابه ملاحظة الإسلام يقدم كيرتز قراءته لسلطان السياسي المغربي ولحركة المجتمع المغربي الثقافية والرمزية . وبعيدا عن التفسير الانقسامي السكوني يعتبر كيرتز أن الإعتماد على المعطى التاريخي في التحليل السوسيولوجي لا يجب أن يعتمد على فرضية عدم وجود أي شيئ جديد الحاضر غير الماضي ، فالأمر غير صحيح . مثلما أن المماثلة بين المؤسسات التي خمدت ونمط العيش الحالي لا تبدو متينة . إن فعالية المعطى التاريخي في تحليل المجتمع تكمن في انه على الرغم

من كون بنية الحياة ومعها تعبيراتها الاجتماعية تتغير فإن الضرورات الداخلية التي تحركها وتنشطها لا تتغير . قد يكون العرش مسألة عتيقة ومتجاوزة لكن السلطة السياسية تستمر في حاجتها الى اطار ثقافي يحدد هويتها ومطالبها مثلها في ذلك ، حسب كيرتز ، مثل المعارضة . يتعلق الأمر مع كيرتز برصد دقيق للثابت والمتغير في الأنساق السياسية بكل متكاتها الرمزية والثقافية .

لقد رسخ كيرتز رؤيته للعالم الاجتماعي عموما والمغربي خصوصا منذ إقامته وزوجته بمدينة صفرو والتقاطه لموضوع بحثه حول اقتصاد البازار .لقد رأى كيرتز في السوق مؤسسة اجتماعية يميز الحضارة المغربية وشكلا ثقافيا ونمطا اقتصاديا واجتماعيا يمكن من خلاله فهم وتأويل أبعاد المجتمع المغربي . ففي السوق تبرز علاقات السلطة متداخلة مع العلاقات القبلية والمعتقدات الدينية أنماط التبادل الاقتصادي وأهم من هذا وذاك حسب كيرتز أنماط تبادل المعنى والدلالة .

إرنست كيلنر . . ودولة الصلحاء

بعد الإرث السيوسيولوجي الكولونيالي الفرنسي سيصبح المغرب موضوعا للسوسيولوجيا الأنكلوساكسونية . وقد شكل البحث في من يحكم المغرب السؤال المركزي إلى جانب قياس كيفيات العبور من المجتمع التقليدي إلى المجتمع العصري . في سياق الجواب على ذلك ستنجز الأبحاث حول النخب المحلية والوطنية في سياق علم

الاجتماع السياسي مثلما ستتوجه الأبحاث الانثروبولوجية لدراسة الأنظمة القبلية وشقيقتها في علم السياسة لدراسة النسق السياسي . هيمنت المقاربة التجزيئية أو الانقسامية على أغلبية الأبحاث الانكلوساكسونية . ويعتبر ارنست كيلنر من الأسماء الوازنة في هذا السياق .

من بين أعمال كيلنر التي تهم المغرب بحثه الذي يحمل عنوان صلحاء الأطلس . ومنذ العنوان يبدو إعلان التباعد عن السوسيولوجيا الكولونيالية الفرنسية واضحا . فلفظ ونعت المرابطين أو المارابو العزيز على أولئك سيدخل الأرشيف وسيتم التعامل مع ظاهرة الصلحاء وعلاقاتهم مع كل من المخزن والقبيلة بنوع مغاير منهجيا وتحليليا .

سيتوجه كيلنر إلى قبيلة آيت عطا والتي تعيش تحت ظل الرعاية الروحية والدينية للزاوية الحنصالية . ومن ضمن تحدياته النظرية فحص مدى نجاعة أطروحة روبير مونطاني المعروفة بنظرية اللف والتي استخلصها من بحثه البربر والمخزن . لقد بحث مونطاني في أنماط التنظيم السياسي لما سماه بالجمهوريات البربرية وفكك وحداتها الصغرى بدء بالدوار والقبيلة والفيدرالية القبلية مثلما وصف أنماط التحالفات القبلية والمؤسسات السياسية لهاته الجمهوريات وكذا مؤسساته الاقتصادية والتي تسهر على تنظيم الأسواق وتوزيع المحاصيل والسهر على الحفاظ عليها في المخازن . . وقد كانت مؤديات البحث رصد الكيفيات والآليات القبلة التي ستكون وراء

ميلاد وتطور السلطات الشخصية للزعماء القبليين وإلى توسع بعض القبائل على حساب أخرى ومعها ونشوء الحروب القبلية التي ستلد ظاهرة القواد الكبار أو ما سيعرف بأسياد الأطلس . مع قواد الأطلس الكبار ستسود الفوضى في المملكة الشريفة وستتأكد لمونطاني الطبيعة الفعلية للقبائل البربرية ودرجات تشبثها باستقلاليتها وكذا كيفيات انتقالها من جمهورياتها الديموقراطية إلى الخضوع للزعامات القيدلية الكبرى .

من أسياد الأطلس القبليين إلى أسياد الأطلس القداسيين ، ومن دولة الأمغار القبلي إلى دولة اكورامن الصلاحي تلك هي النقلة التي سيحدثها ارنست كيلنر . تقع الزاوية الحنصالية في موقع مهم من جغرافية قبيلة أيت عطا . إنها تقع في منطقة عبور بين السهل والجبل وبما أن جزءا من القبيلة كان يتنقل بين السهل والجبل فقد كان هذا الترحال يخلق صراعات عديدة بين مكونات القبيلة الواحدة من مستقرين ورحل . وكان من بين أدوار الزاوية الكبرى ممارسة التحكيم والسهر على إبرام الاتفاقات وضمان سيران مفعولها على جميع الأطراف . مثلما كانت تسهرعلى مراقبة وتوزيع أوقات الاستفادة من عمليات السقي وكذا المراعي الخصبة .

تتباين الوظائف الاجتماعية للأجزاء المكونة للمجتمع التجزيئي حسب كيلنر ، إنها تنطلق من الأسفل إلى الأعلى فالأسرة الموسعة تقوم بتدبير واستغلال الميراث العائلي بينما تتكفل الوحدة السلالية

في إطار القرية بالمشاكل المتعلقة بتوزيع الماء والأرض في حين تتكلف القبيلة بالعلاقات الخارجية مع القبائل الأخرى وخصوصا فيما يهم السوق والمراعي والحدود . . .

و على الرغم من تمايز المهام والوظائف فإن كل أجزاء المجتمع التجزيئي سواء الصغيرة أو الكبيرة منها تخضع لنفس التنظيم المؤسسي : جماعة مكونة من ذكور بالغين ينتخبون حسب شروط معينة هيئة تشريعية تسهر على التشريع والتنفيذ . لهذا السبب يغاير كيلنر مونطاني بخلاصاته . فقبيلة آيت عطا والتي اعتبرها نموذجا للتنظيم الانقسامي لا تعرف التراتب وتقسيم العمل والزعامة شروطها ضعيفة ومحدودة . إنها مجتمع مطبوع بالمساواة وبنباتها تحول دون قيام زعامات قوية ، كما تحول دون بروز مؤسسات مختصة بالمحافظة على النظام ومزاولة العنف المشروع . إن البنيات الانقسامية حسب كيلنر تتفادى تركيز السلط . إلى جانب ذلك يعتبر كيلنر أن سلطات الزعيم القبلي تحدها سلطات الصلحاء .

لقد شكلت قبيلة آيت عطا سند الزاوية الحنصالية القبلية مثلما شكلت الزاوية الحماية الأمنية الروحية لقبيلة . تتراتب الزاوية على عكس القبيلة وتنعم بتركيز السلط بين يد الشيخ وسلطها لا حدود لها وبسبب ذلك كانت مهمة الحنصاليين حسب كيلنر هي ضمان سير النسق التجزيئي وذلك عبر القيام بمهمة التحكيم والوساطات وهي مهمات سلمية . لقد لعب صلحاء الأطلس مهمات سياسية

تمثلت في الحفاظ على هامش استقلالية القبيلة عن السلطة المركزية مثلما لعبت دورا ثقافيا تمثل في منح القبيلة إمكانية الحفاظ على ثقافتها وعوائدها المحلية . وإلى جانب هذا وذاك كانت الزاوية هي من يسهرعلى عملية الانتخاب وليس عملية التعيين وهو ما دفع كيلنر للقول مجازا بدولة الصلحاء التي تضمن الوساطة والتحكيم .

بول رابناو . . . المغرب ليس واقعة أنثروبولوجية .

بول رابناو من الباحثين الأنثروبولوجيين الأميريكيين الذين اشتغلوا على المغرب وبالضبط على الأحواز القبلية لمدينة صفرو وذلك تحت إشراف كليفور كيرتز من سنة 68 إلى 1969 م . وقد أصدر إثر ذلك بحثه بالانجليزية تحت عنوان الهيمنة الرمزية : التشكل الثقافي والتغيرات التاريخية بالمغرب . لم يثر هذا البحث التقليدي كما ينعته رابناو حفيظة البحثة والمهتمين مقارنة بالمؤلف الثاني الذي سينشره بعد ذلك تحت عنوان : اثنولوجي بالمغرب وهو عبارة عن تأمل ذاتي ونظري في بحثه الميداني السابق . هذا المؤلف الأخير سيكتب تقديمه السوسيولوجي الفرنسي بيير بورديو والذي سيعتبره لحظة القطع القصوى مع التصور الوضعي للبحث العلمي . لقد رسخ رابناو تصور كيرتز للمعرفة ولميدان البحث وللعلاقة بين الباحث والمبحوث . يقول بورديو إن الإشكالات الجديدة التي يتطرق لها رابناو خصوصا تلك المتعلقة بمخبريه . تلخصها جملة شهيرة لجان بياجي يقول فيها : لا

يتعلق أمر الكلام عند الرضع بكونهم لا يستطيعون إنجازه ، بل إنهم يجربون جميع اللغات إلى أن يعثروا على اللغة التي يفهمها آباؤهم .

في تقديمه لكتابه يقول رابناو ، لقد غادرت شيكاغو يومين بعد اغتيال روبير كينيدي وذلك باتجاه المغرب . وصلت إلى باريس في غشت 1968م وهي فترة الانتفاضة الطلابية الفرنسية . وبعدها توجهت إلى المغرب وبالضبط إلى مدينة صفرو حيث قمت بعملي الميداني في قبائل الأطلس المتوسط . الكتاب الذي أقدمه الآن للقارئ هو تقرير مفصل نسبيا عن هاته التجربة الميدانية بالمغرب . وقد حاولت فيه أن أتحرر من سلطان التصور التقليدي الذي طبع الإثنولوجيا والذي يزن الباحث بميزان تجربته الميدانية والتجريبية . لقد اخترت المقاربة الفينومينولوجية والتأويلية على اعتبار أن كل ثقافة هي في النهاية تأويل . فالوقائع التي يدونها الأنتروبولوجي في الميدان ليست وقائع خام بل إنها تاويلات . الوقائع تحكى من طرف الناس وبما أنها كذلك فإنها ليست غير تأويلات هؤلاء للوقائع . لا تشبه الوقائع ركام الحجارة التي نجمعها ونرسلها للمختبر كي يتم تحليلها ، بل إنها معطيات مبنية أصلا والأنتروبولوجي يضيف إليها بناء جديدا ، هكذا تصبح كل الوقائع حاملة في طياتها تأويلات عديدة . إن الأنتروبولوجيا حسب رابناو علم التأويل ، أما موضوعها فهو دراسة الإنسانية من منظور الآخر الذي لا يتفوق عنها في شيء .

بناء على هاته المحددات النظرية المتشبعة بالميدان يعتبر رابناو أن

الإثنولوجي ومخبريه يعيشون معا في فضاء ثقافي متوسط (بفتح السين) وهما معا مشدودان داخل شبكات الدلالة التي نسجاها بأنفسهما . هي ذي الإثنولوجيا أما وقائعها فإنها عابرة للثقافات بما أنها تتشكل عبر انتهاك الحدود الثقافية . الوقائع توجد في الواقع المعيش لكن يتم تشكيلها أثناء مسار الاستجواب والملاحظة والتجربة . هذا المسار الذي يعتبر مشتركا بين الايثنولوجي والناس الذين يعيش بينهم . ما يعني حسب قول رابناو بأن المخبر (الشخص الوسيط بين الانثروبوليجي والمبحوثين) عليه أن يظهر ويعلن ثقافته ويعيها ويضفي الطا بع الموضوعي على عالم عيشه .

يحكي رابناو على طول صفحات كتابه علاقاته المتعددة مع مخبريه الصفريويين بكل رهاناتها الانسانية والمهنية والذاتية . علي وابراهيم وعبد المالك وآخرون ، كل بأكثر من حكاية ودسيسة ورهان . إنه الأميريكي الذي اختار قرية الحسن اليوسي للبحث وهو الذي لا يحسن الفرنسية جيدا في منطقة ذات ماضي استعماري فرنسي ولا يحسن الأمازيغية والعربية كذلك . سيتعلم رابناو اللغات المحلية وسيتوغل أكثر في قوانين اللعبة الرمزية والثقافية مع مخبريه ومبحوثيه . سينتهك الحدود الثقافية كما يقول وسيتعامل مع هؤلاء بالندية والتي ستكون نتيجتها توترات كثيرة كان منتهاها الانتقال من علاقة العالم بمخبريه إلى تدشين الصداقات . يختم رابناو مؤلفه بفصل عن الصداقة وسيكون ادريس بن محمد موضوع هذا الفصل .

لقد رفض ادريس الاشتغال معي كمخبر وظل يعاملني كضيف ليس إلا بكل ما تستلزمه قيم الضيافة من احترام . لكن مع مرور الوقت سنصبح أصدقاء وستغادر أحاديثنا نطاق الاستجواب الانثروبولوجي . ستناقش حول الثقافات هل هي متساوية أم لا؟ وحول العنصرية وحول أحكامنا الواحد تجاه الآخر ، وفي كل مرة كان ادريس يعرض رأيه وينبه إلى الأحكام التى تصدر في حق ثقافته . فالمسلمون يقول ادريس يتفوقون على باقي الثقافات غير المسلمة . هكذا أراد الله .

إن دروس التسامح مع الآخر ومع الذات والتي علمني إياها ادريس ، يقول رابناو ، خلال الأيام الأخيرة من إقامتي بصفرو أعطت أكلها . لقد غمرني الإساس وبكل قوة عمن أكون : إنني أميريكي ، حينها علمت أن الوقت قد حان لمغادرة المغرب .

ديل ف أيكلمان وعلماء المغرب

ديل أيكلمان باحث أميريكي غاير التقليد الأنكلوساكسوني سواء على مستوي المنهج أو الموضوع . وقد اختار ثقافة البادية المغربية ومثقفوها المحليين لقراءة المجتمع المغربي بكل تحولاته . يقول أيكلمان : إن منهجيتي في الدراسات الأنتروبولوجية تكمن في طرح الأسئلة على هؤلاء المثقفين من أجل التأسيس للإجابات التي تحيل على أسئلة أخرى أما اختياري فينصب على محاورة مثقفي وفقهاء البوادي والمدن الصغيرة والابتعاد ما أمكن عن محاورة المثقفين العصريين في

المدن الكبرى لارتباطهم غالبا بإيديولوجيا معينة وغلبة اللغة الفصيحة اللغة الشعبية في أحاديثهم . ارتبط اسم الباحث الأمريكي بمنطقة بجعد وبزاويتها الشرقاوية . ففي كتابه الإسلام في المغرب جمع وثائق الزاوية وفكك مضامينها عبر الاستعانة بمن هم أدرى برسومها وطريقة خطها . فجاءت علاقته البحثية والشخصية مع القاضي عبد الرحمان المنصوري الذي ساعده على ذلك .

يقول أيكلمان عن شرقاوة في الإسلام والمغرب ، إن وجاهة الشرقاويين ومكانتهم كنماذج حية تجسد التركيب الديني لمعتقدات الزوايا ، من معرفة بالعلوم الدينية وشهرة بالصلاح وقدرة على منح البركة وإلى يومنا هذا يشكل الشرقاويون حلقة وصل بين المعتقدات المحلية الشعبية والمعتقدات الإسلامية العالمة .

يكشف أيكلمان عن الموقف السلبي لعلماء الحواضر من معتقدات الزوايا ويعتبره تجسيدا لقوة هاته المعتقدات وقدرتها على البقاء والاستمرار . مثلما يوضح مكمن الخلل الحاصل فيه والمثمتل في كون الأنتيلجينسيا الحضرية لم تستطع التمييز بصورة واضحة بين المعتقدات الأصيلة والمعتقدات الشعبية وهو جعل العلاقة بينها ومعتقدات الزوايا تتسم بالارتياب والرفض .

في بحثه عن صورة وحياة مثقف البادية ضمن كتابه المعرفة والسلطة يلاحظ أيكلمان أن ضيق المجال السياسي الذي تحرك فيه العالم الديني قد دعم النظرة الضيقة لمسؤولية العالم كما تطورت في

تقاليد التعليم الإسلامي والتي تميزت كما يقول أيكلمان باكتساب المعرفة الدينية واستثمارها بحسب الطرق الموضوعة لها وليس للسعي إلى تغيير المجتمع .

لقد فشل المثقف الديني في إعطاء بدائل ايديولوجية وعلمية لما كان عليه النظام الاجتماعي فمن جهة أولى لم يقدموا بديلا لمفهوم اللامساواة الاجتماعية الذي كان سائدا والذي يعني أن اللامساواة هي الحال الطبيعي للنظام الاجتماعي .

إن مسؤولية العالم كما هي مرسومة تبعد العلماء عن العمل السياسي مثلما تحد حتى من عملهم ومسؤولياتهم الدينية المحضة . نتيجة لذلك يخلص أيكلمان سواء في كتابه الإسلام في المغرب أو المعرفة والسلطة إلى أنه لم يكن بالمغرب أي تطلع كي يشكلوا طليعة ايديولوجية سواء في الأوقات العادية او في أوقات الاضطراب الاجتماعي . ما كانوا يقومون به هو التعبير عن بعض الأحاسيس العامة دون أن يتطور لديهم تقليد لتشكيل تلك الأحاسيس أو قيادة التغيير الاجتماعي وتوجيهه . يقول أيكلمان ان الصلة القائمة بين التصور الشعبي لما يجب ان تكون عليه المعرفة في نظر العامة والمعرفة التي يبثها وينقلها التعليم الاسلامي الأصيل يمكن أن تفسر لنا استمرارية المشروعية الشعبية التي يحظى بها هذا الصنف من المعرفة مثلما يمكن أن تفسر لنا من الناحية المبدئية على الأقل المشروعية الشعبية التي يحظى بها حاملوا هذه المعرفة .

لقد عرف الحقل التعليمي الإسلامي تحولات عديدة سيفقده حظوته وأدواره وسينظر الكل حسب ايكلمان بازدراء للتعليم الديني سواء من حيث طرقه البيدغوجية أو المضمونية وبدأ ت المعرفة تتحول من علم مختزن في الذاكرة إلى معطيات متضمنة في الكتب وهكذا بدأ شيوخ المساجد أنفسهم يرسلون أبناءهم الى المدارس الفرنسية وقد صادفت هاته التحولات ظهور أشكال جديدة من المعرفة الدينية ستقودها حركات دينية بأفكار جديدة عن العدالة الاجتماعية والمسؤولية السياسية للعالم .

واتربوري . . وأمير المؤمنين

من بين المقاربات التجزيئية أو الانقسامية للمجتمع المغربي التي استهلكت بشكل مهول من طرف من يتفقون معها أو يرفضونها نجد مؤلف الباحث الأميريكي جون واتربوري المعنون بأمير المؤمنين . وقد انخرط هذا المؤلف رغما عنه في مجرى الكتب الممنوعة والمبحوث عنها لدى مناضلي اليسار ومثقفيه عموما . لذلك فهو كتاب بأزيد من حكاية سواء في سياق المناضلين القارئين والذين لم يكونوا يرغبون في تفويت قراءته إلا لمريديهم المقربين أو مع المخابرات المغربية التي كان يفزعها بعنوانه فقط .

يقول واتربوري : لم يكن هدفي الحكم على النظام المغربي أو انتقاده بل تحليل ووصف السيرورة السياسية الخاصة بهذا البلد .

وبإيجاز تمنيت أن أساهم في إغناء تخصصي ومن تم أن أقدم أطروحة مقبولة في اطار العلوم السياسية . لقد انتهيت من عملي مع أواخر الستينات وبما أنه لم ير الوجود إلا بعد ذلك بخمس سنوات فقد كنت مضطرا لمواجهة ووصف ما عرفه المغرب من أحداث انقلابية مع بداية السبعينات .

لم تكن الدراسات الخاصة بالنسق السياسي المغربي متوفرة بشكل كاف ، فالباحثون المغاربة كانوا يرزحون تحت ظل الخطوط الحمراء والباحثون الأوربيون والفرنسيون خصوصا ظلوا مشدودين إلى الأحداث والاهتمام بماضي المجتمع المغربي . فإذا ما استثنينا عمل روبير ريزيت حول الأحزاب السياسية ومؤلف جاك روبير حول الملكية المغربية وعمل أوكتاف ماري الأكاديمي فلن نجد ما يذكر بهذا الخصوص .

إن هدفي من وراء هذا البحث يقول واتربوري هو إيضاح الكيفية التي تحولت بها الأحزاب السياسية المغربية إلى وضعية العاجز عن الفعل .

اعتمد واتربري على النظرية الانقسامية في قراءته للنخبة السياسية المغربية . والتي من أهم أعمدتها النظرية ثباتية وسكون البنيات الاجتماعية والسياسية رغما عن حركة وتغيرات الوحدات الصغرى .

من بين ما يستحضره قراء واتربري وكذا زوجته الحكاية التي

يختم بها تمهيده الأول لكتابه والتي يسرد فيها سنة وصوله إلى المغرب مع متم نصف الستينات الأول أي مع اندلاع انتفاضة ألف وتسعمائة وخمسة وستين . لقد اختطف المهدي بن بركة والبلاد في حالة طوارئ قصوى وخرجت يقول واتربري وفاجأني الوضع إلى حد الخوف والهلع وأخبرت زوجتي أن تبلغ السفارة الأميريكية أن لم أعد بعد ساعتين إلى المنزل . تقدمت عبر دروب الرباط بحذر ولما وصلت إلى غايتي وجدت قليلا من الطلبة بينما في الملعب المقابل لكلية الآداب كانت هنالك مبارة لكرة القدم تجمع فريق الرباط والبيضاء . ليس لهاته الحكاية من عبرة أخلاقية يقول واتربري سوى أنه بالمغرب لا شيء يحصل في الواقع كما يمكن أن نتوقع منطقيا .

يعزز واتربري منطوق حكايته نظريا وذلك باللجوء إلى النظرية الانقسامية التي ترى في المغرب مجتمعا راكدا وساكنا . فمند قرون عرف المغرب التوتر والعنف بدرجات متفاوتة لكن هذا العنف وتلك التوترات لم تعمل سوى على تأطير الثبات والسكون . فالمغرب يبدو دائما على أهبة الانفجار والذي لا يحصل أبدا . إن الثبات خاصية أساسية للمجتمع المغربي . يعتبر واتربري أن الخطاطة العامة للمجتمع المغربي وليدة القبيلة ، والدراسات التي قام بها البحثة الأوروبيون حول القبيلة بإمكانها أن تساعدنا على فهم السلوكات السياسية للمغاربة . فالشبه بين الثبات الداخلي للقبيلة والحياة السياسية يبدو كبيرا . القبيلة لا توجد كواقع سوى في حالة تعارضها مع قوة خارجية . إنها

تشكيلة هلامية لمجموعات جزئية صغيرة محددة بنفس المعايير . تضمن حركتها بالتوترات والصراعات ووحدتها بالتحالفات والتضامنات على أكثر من مستوى . نفس الأمر تعرفه الحياة السياسية ، فالمشاركون في الحياة السياسية داخل النسق التجزيئي يمتلكون تصورا سكونيا عن السلطة السياسية . فخسارة البعض هي ربح البعض الآخر .

في الفصل الثالث من مؤلفه يبسط واتربري باستفاضة الكيفية التي طبق بها النظرية التجزيئية على الحياة السياسية المغربية . يقول بهذا الخصوص ، لقد لاحظت بأنه في العلاقة مع النظام السياسي ومع الثروات المادية فإن مختلف مكونات النخبة المغربية تتصرف بسلوكات مماثلة للقبائل المنظمة حسب المبادئ التجزيئية . تتمثل الخاصيات المشتركة حسب واتربوري في أربعة عناصر كبرى :

- حضور مفهوم الهوية المرتبطة بالوضعية : الفرد لايكون كذلك إلا بالرجوع إلى وضعية أو جماعة ما ، وكلما تغيرت الوضعيات تغيرت الهويات .

- نسبية مفهوم الصداقة : نفس الشخص يمكنه أن يكون صديقا أو عدوا حسب الظروف . فالصداقة تظل متحركة ومعها الإحساس بها وبالعداوة . ويمنح هنا المؤلف مثال الصداقة التي ربطت الحسن الثاني بالجنرال أو فقير وما آلت اليه .

- تعددية التحالفات والتي تفرضها الأوضاع المتقلبة باستمرار . فرجل السياسة عليه أن يكون مهيئا لكل شئ وأن يحدد في كل

وضعية من بإمكانه أن يكون صديقا أو عدوا ويبني على إثر ذلك تحالفاته .

- الابتعاد عن السلوك المتهور والمغامر لأنه يؤدي إلى العزلة والانعزال . لذا يكون من الأفضل عدم المخاطرة في التحالفات واعتماد أسلوب الدفاع فقط لأنه الأكثر معقولية . ويمنح واتربوري بهذا الخصوص مثال المحاولتين الانقلابيتين الفاشلتين .

إنها العناصر الأربعة التي أود التركيز عليها تحليليا لإبراز الخصائص المشتركة بين القبيلة والنخب الساسية المغربية .

فاطمة المرنيسي . . الحريم وسوسيولوجيته

فاطمة المرنيسي عميدة الباحثات السوسيولوجيات ليس بالمغرب فقط ولكن بالعالم العربي . ولدت بمدينة فاس وبها شبت ، ومن فضاءاتها التقطت موضوع اشتغالها : الحريم . هي الآن أستاذة بالمعهد الجامعي للبحث العلمي وعضو بمجلس جامعة الأمم المتحدة . انخرطت منذ عقود من الزمن في المجال المدني للدفاع عن حقوق النساء . أسست سنة 1981م مجموعة المرأة والأسرة والطفل . والقافلة المدنية . شبكة المرنيسي هي الفضاء الذي تشتغل فيه مع الباحثات المتمرسات والمهتمات بقضايا المرأة ، وسلسلة اقتراب التي أطلقتها بدار النشر الفينيك هي البنية التي تيسر نشر الأبحاث التي تتم داخل الشبكة . للمرنيسي أكثر من بحث ومؤلف ونص تخييلي . وتمتلك

أكثر من لسان . لم تكن السوسيولوجيا اختيارا مقررا بل صدفة مثلها في ذلك مثل كل حب . كانت المرنيسي طالبة في العلوم السياسية وذات يوم تقول ، جاءت امراة إلى فاس (نيلي فوغجيل) تبحث عمن يساعدها لإجراء استمارات ، وكانت تبحث في وضعية النساء . سألتها عن معنى الاستمارة ، وشرحت لي الأمر مثلما أوضحت لي بان السوسيولوجيا هي دراسة المجتمع . ذهبنا لملاقاة النساء وقد كنا نبحث في وجهات النظر والآراء والسلوكات . فقلت لها : إنه العلم الذي أود دراسته . تضيف المرنيسي ، كنا ندرس في العلوم السياسية عن المالية العمومية وأنا لم أعرف يوما وأتعرف على شيك بنكي ، مثلما كنا ندرس عن الديموقراطية في حين شاهدت الشرطة تقتحم الحي الجامعي سنة 1962م . لقد اعتقلوني مع مجموعة من الطلبة ليطلقوا سراحنا في المساء ولا أعرف لحد الآن لماذا؟ لكني أعرف أن طلبة آخرين لم يعودوا . هكذا بدأ القمع . عاشت المرنيسي كطالبة لحظة ازدهار الاتحاد الوطني لطلبة المغرب بجامعة محمد الخامس وستعود للتدريس بنفس الكلية وهو يعيش لحظات انحصاره . وإذا ما استحضرنا أن ما ستدرسه المرنيسي هو موضوع أطروحتها (الجنس كهندسة اجتماعية) فإن صدمتها ستكون أكبر .

أطروحة المرنيسي الكبرى والموجهة لكل كتاباتها ومواقفها هي أن الجنس هندسة اجتماعية والحريم نتاج لهاته الهندسة . تقول المرنيسي ، الحريم هندسة حيث العالم ينشطر إلى مجال خاص وآخر

عام . الرجال لهم حق ولوج العالمين في حين تظل النساء حبيسات المجال الأول . هاته الهندسة نفرضها على أنفسنا كيف ما كان المكان والثقافة . في أطروحتها الجامعية والتي سيكون كتابها الأول ، الجنس والايدويولوجيا والإسلام ، مكثفا لها سترسي المرنيسي الركن الأول من الأطروحة والمتمثل في كون الجنس معمار أو هندسة اجتماعية وليس واقعا سيكولوجيا أو دينيا أو تاريخيا وستحاور في سياق ذلك حجة الإسلام الإمام الغزالي في الجزء الثامن من مؤلفه إحياء علوم الدين . وفي مؤلفها الحريم السياسي ، النبي وزيجاته ، ستتوغل أكثر في إحداث الشرخ بين حياة النبي والايديولوجيا الدينية للشروحات والتفاسير ، وستوسع حقل النصوص وكذا حقل الاسئلة المرتبطة براهن المرأة العربية الاسلامية لتؤكد أطروحتها من جديد : الحريم ليس معطى بيولوجيا أو دينيا بل إنه نتاج ترسخ التأويلات الذكورية والقبلية لأصحاب السيرة والتفسير في الواقع وغلبتها على الحق والحقيقة التاريخيتين . وفي سلطانات منسيات ستثبت المرنيسي هاته الخلاصة المتعلقة بالمفارقة بين الحقيقة التاريخية والخطاب الايديولوجي للمؤرخين الأوائل ومدوني السير ، عبر وضع كل النصوص القداسية والفقهية التي حاورتها في كتبها السابقة أمام عماها التاريخي . في التاريخ العربي كانت هنالك نساء حكمن الرجال والنساء وكانت الخطب الدينية تلقى باسمهم . إن الرمي بالمرأة إذن في المجال الخاص وحبسها في فضائه (الحريم) واختزال تاريخها في المرأة العورة التي

يجب عليها أن تحتجب ، ليس معطى للتاريخ (تاريخ الملكة أسماء وأروى يكذب ذلك) وليس معطى للدين (لم تفنى الدنيا حينما كانت خطبة المسجد تلقى باسم امرأة) . يتعلق الأمر إذن بخوف تاريخي ومستقبلي من الحداثة (الخوف من الحداثة : الديموقراطية والإسلام 1992م) . في كتابها حريم الغرب2001م ستتوجه المرنيسي للركن الثاني من أطروحتها والمتعلق بأن الحريم هندسة نفرضها على أنفسنا كيفما كان المكان أو الثقافة : الحريم لا يرتبط بخصوصية ثقافية إسلامية بل إنه وضع أكبر يتوزع بين التاريخ والواقع والنصوص وكذا الذهنيات وأشكال استهلاكه ليست واحدة وموحدة . قد تكون الثروة وهواجس المتعة والإشهار أشكال لاستهلاك وإعادة إنتاج ظاهرة الحريم . تقول المرنيسي ، لم يكن بإمكاني البقاء في الشارع بأميريكا بعد الثامنة مساء . لقد غادرت أميريكا بسبب العنف في وقت كنت سألتحق بالأمم المتحدة وأصبح مليونيرة . فالأمن في مدينة فاس أكبر لأنهم لايعتدون على النساء .

إنه النقد المزدوج ، نقد الذات ونقد الآخر نقد التارخ وتعرية الحاضر ، مواجهة النص مع الواقعة التاريخية ومواجهة التاريخ مع ضرورات المستقبل . إنها الاستراتيجية المنهجية لفاطمة المرنيسي والتي لا تعلنها لأنها على طريقة الأميركيين لا تستهويها التنظيرات المنهجية والمرجعيات النظرية ، بل إنها تمارسها وعوض إضاعة الوقت في عرضها تفضل أن تؤلف كتابا يكون فضاء لمنح الكلام فيه لنساء

قرويات ، ليس لهن أي حظ في أن ينصت إليهم العالم الذكوري الرسمي أو العالم (المغرب عبر نسائه 1991م ، والذي هو عبارة عن مقابلات حية مع نساء قرويات وعاملات وخادمات بيوت غطى الاشتغال فيه ما يقارب العشر سنين) .

فاطمة المرنيسي وَلية الباحثين والباحثات في قضايا المرأة والجنس ، ولأنها كذلك فإن الأحداث تصل إلى حدود قدميها وتنقلب إلى ضدها . إنها في الحقل الجامعي وتفضل العمل بعيدا عن عوالمه ، طفلة الثقافة الفرنسية والأميريكية وتفضل قفطان وحلي الفاسيات ، تعرض مؤلفها الحريم السياسي للمنع واعتبرت في الأمر هبة لانتشار الكتاب ومساهمة خلقت لها فرصة زيارة عواصم كثيرة ، تشتغل ومنذ عقود على قضايا البلد والعرب والمسلمين والجائزة السامية التي ستتلقاها ستكون برانية ، وليس ملكية مغربية . يطالب الجامعيون ومدبروا المجال الجامعي بالاستثمار في البنيات التحتية الجامعية وتطالب هي عوض ذلك بالاستثمار في مقاهي السيبير وتحويلها إلى كليات . . .

عبد الجليل حليم . . سوسيولوجيا التبعية

عبد الجليل حليم من الجيل الثاني للسوسيولوجيين المغاربة . عضو دائم في الأمانة العامة لاتحاد الاجتماعيين العرب وأحد مؤسسي الجمعية المغربية لمدرسي الفلسفة والتي كان سوسيولوجيون كثر من

الفاعلين فيها . مدير لمركز الأبحاث والدراسات النفسية والاجتماعية . انخرط منذ أواسط سبعينيات القرن الماضي في اهتمامات جيله وكذا الجيل المؤسس . وخصوصا المسار الذي رسمه نقديا عبد الكبير الخطيبي وميدانيا بول باسكون . لم يكتف عبد الجليل حليم باستهلاك إشكالات المؤسسين والمتمحورة حول كيفيات التعامل مع الإرث السوسيولوجي الكولونيالي والأنكلوساكسوني ، بل سينخرط سوسيولوجيا في استكشاف سؤال الجيل الثاني والمتمحور حول طبيعة المجتمع المغربي : هل هي اقطاعية أم فيودالية أم تنتمي الى أنماط انتاجية أخرى؟ ينتمي السؤال في جزء منه إلى إرث المؤسسين سواء عبر بحثهم في طبيعة التراتبات الاجتماعية بالمجتمع المغربي أو عبر العمل على تحديد موقعه داخل خريطة المجتمعات الواضحة بنياتها الاقتصادية والاجتماعية . سيشتغل عبد الجليل حليم على الإقطاع وتملك الأرض بالمغرب انطلاقا من حالة منطقة الغرب وذلك لنيل أطروحة السلك الثالث سنة 1977م . وانطلاقا من هذا العمل سينخرط في النقاشات التي كانت دائرة آنذاك وبعدها بسنوات حول الهوية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع المغربي . سينشط عبد الجليل حليم مجلة الأساس بمقالات عدة حول ماهية الاقطاع؟ وماهية الفيودالية وأصول الفيودالية بالمغرب والرأسمالية الزراعية بالمغرب والبورجوازية التابعة والهيمنة السياسية والامبريالية وإدماج التشكيلات ماقبل الرأسمالية . . .

لقد قرنت الدراسات المنشورة وغيرها من المداخلات العلمية غير المنشورة اسم الدكتور عبد الحليم جليل بالسوسيولوجيا القروية . وجعلته وكأنه يسير على نفس هدى بول باسكون . لقد راكم في هذا الباب إلى جانب أطروحتيه الأكاديميتن (إحداهما بالمناسبة مهداة إلى بول باسكون) دراسات عدة حول القرية المغربية سواء عبر سؤال الملكية العقارية أو التحديث القروي أو البدو والسلطة السياسية في المغرب وإشكالية التغير في العالم القروي . . . وجاء كتابه الجامع لكل ذلك يحمل عنوان : البنيات الزراعية والتغير الاجتماعي بالمغرب ، من الإقطاع إلى الرأسمالية 2000م . لن تدفع التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية المتداخلة والمتعايشة والمتصارعة بالمجتمع المغربي إلى استهلاك أو اعادة انتاج الأطروحة الباسكونية القائلة بالمغرب المزيج بل ، بقدر ما سيدقق الأستاذ حليم في مفاهيم كثيرة مثل الاقطاع والقطيعة والفيودالية ، بقدر ما سيرحل بسؤال طبيعة المجتمع المغربي إلى منطقة إشكالية مغايرة لإشكالات المؤسسين . سيتخذ من المجتمع القروي موضوعا للبحث ليسائل من خلال ذلك سبل الخروج من وضعية التخلف والتبعية ويكشف عن التنمية المبتغاة لأجل تجاوز ذلك : كيف يمكن إخراج المجتمع المغربي قرويا أو حضريا من التخلف والتبعية لينال حظه من ثمار الحضارة الإنسانية الجديدة وينخرط في الحداثة والتنمية العقلانية العلمية؟ ذاك هو السؤال المحفز لأبحاث حليم عبد الجليل . وفي سياق الإجابات السوسيولوجية عنه

سيكون من السوسيولوجيين المغاربة الأوائل الذين سيغيرون بوصلة السوسيولوجيا المغربية نحو السوسيولوجيا الأميريكولاتينية (دوس سانطوس وغاندرفرانك) والتي تقترح مفهوم التبعية كمقاربة نظرية شاملة للتنمية في المجتمعات التي تعيش وضعيات متناقضة داخليا وتبعيات متعددة للمراكز الخارجية . يقول حليم عبد الجليل في هذا السياق : عوض اعتبار التخلف نتيجة بنى عتيقة متأخرة ماقبل رأسمالية ، فإن نظرية التبعية تتيح تجاوز هذا الموقف الزائف وتفسر التخلف من وجهة نظر تاريخية كنتيجة لوضعية عالمية وكنتيجة لانتشار الرأسمالية على الصعيد العالمي . . . إن التبعية مجموعة من البنى الداخلية الخاصة بالبلدان المتخلفة والناتجة عن التنمية كظاهرة تاريخية عالمية وتكون وتوطد وانتشار النظام الرأسمالي . ذلك أن انتشار الرأسمالية وتطورها كانت له آثار على البلدان غير الرأسمالية ومن ثم فإن دراسة تطور الرأسمالية هذا ، في المراكز المهيمنة ، قد أعطى الاستعمار والامبريالية ، أما دراسته في البلدان الأخرى فستعطي نظرية التبعية . ذلك أنه أصبح من الضروري تجاوز النظرة التي تدرس تطور الرأسمالية من وجهة نظر المركز المهيمن وحده وأصبح من اللازم أن يؤخد بعين الاعتبار مجموع المناطق المحيطة بصفتها تكون جزءا من العلاقات الاقتصادية والاجتماعية السائدة على الصعيد العالمي .

من الانغراس في قضايا العالم القروي وانتقالا بأسئلته إلى فضاء سوسيولوجيا التبعية والتنمية والتغير الاجتماعي ووصولا

(لا يتعلق الأمر بتوقف لأن حليم عبد الجليل لازال معطاء) إلى التتبع السوسيولوجي لقضايا الشغل والتشغيل بالمغرب وكذا أشكال الانتقال بالسوسيولوجيا من مرحلة التأصيل إلى مرحلة الإبداع بكل معيقاتها ومستلزماتها ، ظل عبد الجليل حليم مثل المهندس المدني يزاوج بين تصور المدينة الشامل وتشكيل ملامحها العميقة والتحتية . وفي انتظار نشره لما لم ينشر بعد وهو جاهز عنده يكون لنا معه لقاء مغاير كما وكيفا .

عبد الصمدالديالمي . . . الجنسانية المغربية

عبد الصمد الديالمي من السوسيولوجيين المغا ربة االمنتمين للجيل الثاني . ابتدأ مثل كثير من مجايليه مدرسا للفلسفة بالثانوي ليلتحق بعدها إلى جامعة فاس ظهر المهراز أستاذا لمادة السوسيولوجيا ومعها سيدشن مساره العلمي المميز . داخل شعبة السوسيولوجيا بفاس ، لم يكن لسوسيولوجي مثله أن يكون موضوعا للامبالاة . لقد كان مزعجا لزملائه ولكثير من مناضلي الاتحاد الوطني لطلبة المغرب آنذاك ، لا لشيء سوى لأن موضوع بحثه وكيفيات اشتغاله عليه وتدريسه لم يكن لأن يهضم بسهولة . فالدياليات ظل النعت الذي يصف به أساتذة وطلبة كثر أي اقتراب من أطروحة وأنماط تحليل عبد الصمد الديالمي . اشتغل أكاديميا على موضوعة المرأة والجنس في المغرب وبلورها في محاضراته مثلما عمقها في إنتاجاته العلمية

المتلاحقة (المعرفة والجنس ، الجنس والخطاب بالمغرب ، نحو ديموقراطية جنسية إسلامية ، السكن والجنس والإسلام ، نسائية ، أصولية ، صوفية ، الشباب والسيدا والإسلام ، المدينة الإسلامية والأصولية والإرهاب . . .) . لم يكن الديالمي مزعجا للحقل الجامعي فقط بل ظل ولازال يقلق فقهاء الإسلاميين وحركييهم . دفاعه عن أطروحته العلني والجريء والرصين عرضه لصدامات مع هؤلاء وتهديدات من طرفهم واقصاءات من طرف القيمين الرسميين على الشأن الديني بالمغرب .

سيرحل بالسوسيولوجيا الوطنية بعيدا عن إشكالات المؤسسين . وسؤالهم الأساسي حول كيفيات التعامل النقدي مع السوسيولوجيا الكولونيالية وموضوعاتها . مثلما لم تستهويه السيوسيولوجيا القرو ية . بمرجعياتها النظرية وطرق الإشتغال الميداني المرافق لها . بل بعيدا عن ذلك سيفتح بشكل مميز موضوعة الجنس على الحقل الجامعي على اعتبار أن جدة الأمر كامنة في هاته النقلة . فإنتاج موضوعة الجنس ظل يتم خارج الجامعة وبعيدا عن اهتماماتها . في كتابه المعرفة والجنس سيعرض الدكتور عبد الصمد الديالمي مرجعياته النظرية وكذا كيفيات تحويلها نحو موضوعه المحلي . سيحضر كارل ماركس وسيغموند فرويد لكن على الطريقة التي سيركبهما وسيحولهما بها فلهالم رايش ، الطبيب والمحلل النفسي النمساوي . فهذا الأخير كان رفيقا لفرويد وعاملا معه وفي الآن نفسه مناضلا في الحزب الشيوعي .

فرويديا وماركسيا سيرحل رايش على غرار هربرت ماركيوز بالأطروحة الماركسية ومفاهيمها إلى خارج حقلها الأصلي ، وما مفهوم الاقتصاد الجنسي الذي بلوره في كتابه المهدى لسيغموند فرويد ، وظيفة الوجد الجنسي ، وكذا تفسيره للعصاب بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية (مشكلات السكن والتبعية الاقتصادية للمرأة إلى الرجل . . .) وربطه بين الحرمان الجنسي والفاشية ، سوى دليل على ذلك . سيعتبر الديالمي ولهام رايخ المدخل الحقيقي لسوسيولوجيا الجنسانية . في هذا السياق سيشغل مفاهيمه حول القمع الجنسي والجوع الجنسي والحرمان الجنسي والديموقراطية الجنسية .

وسيشكل عبره أطروحته الأساسية والمتمثلة في كون الحرمان الجنسي حينما يتشاكل مع بعض العوامل السوسيواقتصادية كالتهميش والفقر ووأوضاع العيش والسكن المزرية فإنه ينتج التسلط الذكوري والعقلية الأصولية والفعل الإرهابي . يقول بهذا الخصوص : المحرومون من الجنس والمال والجاه والسلطة والثروة والتعليم والشغل وكل ملذات الحياة يشكلون التربة الخصبة لزرع بذور الإرهاب في المجتمع .

بفضل أطروحته تلك سيفسر النزوع الأصولي في المجتمع المغربي وأشكال تغذيه . وأنماط رفضه للحداثة الجنسية ومعارضته للديموقراطية الجنسية . واتباعا لذلك كيفيات انتقال هذا النزوع الأصولي إلى مستواه المتشدد والمتطرف والإرهابي ، وبنفس الأطروحة

سيفسر الدور الذي يلعبه المجال عموما وأنماط السكن خصوصا في تشكيل ملامح الشخصية الأصولية . لا يتردد عبد الصمد الديالمي في إعلان المواقف التي تؤدي لها تحليلاته وكذا فرضيات اشتغاله ، فلكي نعالج الأسس السيكوسوسيولوجية العميقة للحرمان الجنسي والتسلط الذكوري والقمع الجنسي والتي تشكل في ظل فضاءات الفقر والتهميش والعوز مرتع استنبات الأصوليات المعتدلة والمتشددة من المفترض علميا التأسيس العلمي لحقل الجنس كحقل جامع للمرأة والأسرة ، وفكريا إشاعة الفكر اللائكي لأن غيابه يؤدي إلى انتشار الإسلاموية والحركات الأصولية والإرهابية ومجتمعيا ترسيخ الحداثة الجنسية وقيميا الإقرار بالحق في المساواة الجنسية ومعرفيا فتح نصوص القداسة على الحق المعرفي في القراءة والتأويل وسياسيا ترسيخ الديموقراطية لا بوصفها نظاما سياسيا يصلح فقط لتدبير الشأن العام ، بل أيضا بوصفها سلوكا يوميا ونمط عيش في الحياة الحميمية الخاصة . فالديموقراطية في الأسرة ، حسب الديالمي ، مرآة للديموقراطية السياسية في المجتمع .

إن الحقل الجنسي ، يقول عبد الصمد الديالمي ، شبه ملعون ومهمش ، غير محبذ لأن الدراسات الجنسية تعري واقعا وتصف السلوكات وتشخص الممارسات والتي تكون من بينها سلوكات وممارسات غير قانونية وشرعية . لذلك فهي تزعج السلطة السياسية .

لا زالت عطاءات السوسيولوجي المغربي عبد الصمد الديالمي

قائمة ولازالت معها أطروحة الحرمان والجوع الجنسيين تفسر النزو عات المتشددة عقلا وفعلا ،لكن إطلالة قصيرة على التحليل النفسي قد تكشف بأن الحرمان الجنسي منه بشكل خاص ليس مؤداه الوحيد والضروري هو الأصولية وتفجير الذات بل قد يكون رغم محيط الفقر الذي قد يحيط به ، هو التسامي المبدع وليس الزاهد والصوفي فقط . أي بقدر ما يكون الحرمان الجنسي مؤداه إنتاج الإرهابي ، بقدر ما يكون مؤداه إنتاج الأديب والرسام والمسرحي والعالم والتقني الماهر والعاشق الشاعر؟

محمد شقرون . . . سوسيولوجيا التحولات الدينية

محمد شقرون أستاذ السوسيولوجيا بجامعة محمد الخامس . من الذين نبغوا داخل شعبة السوسيولوجيا تدريسا وتفكيرا . رشحه زملاؤه لرئاسة الشعبة وتدبير أمورها ، لكنه سينكسر في نصف الطريق ، بعد الضجة التي اخترقت الشعبة والجامعة ، عن حصول سرقة علمية (شخصيا لا أعرف لحد الآن هل يتعلق الأمر بحدث واقعي أم بتصفية حسابات . .) . من بين إنتاجاته السوسيولوجية التي لفتت أنظار الباحثين آنذاك ، كتابه حول اللعبة الثقافية ورهاناتها بالمغرب 1990م (بالفرنسية) . يفتتح محمد شقرون مؤلفه بشذرة لنيتشه تقول : عوض أن نتمنى معرفة الآخرين بنا كما نحن ، نتمنى أن يظنوا بنا الظن الحسن . نرغب إذن في وهم الآخرين . ليس لنا إذن

أي اعتزاز بتفردنا . في الشذرة ربما ما يضيئ لهيب الضجة أو يخمد جمرها .

يتوزع الكتاب إلى جزئين عريضين ، يتناول أولهما الحقل الديني بالمغرب تاريخيا وتحليليا ، أما الثاني فهو عبارة عن بحث ميداني حول شباب الثانويات وكيفيات استقبالهم واستهلاكهم للخطاب الديني السياسي الإسلامي . إنه بمثابة فصل تطبيقي فاحص للمعطيات النظرية المعروضة في الفصل الأول . يعلن الكاتب انتماءه لمجال سوسيولوجيا التحولات الدينية . وفي سياقها يقدم للقارئ فرضيته الموجهة ، وكذا الأسئلة الكبرى التي سيجيب عنها البحث . يقول محمد شقرون : نقدم الفرضية القائلة بأن التحولات الأساسية للمجتمع المغربي تتم حاليا في المجال الحضري ، عكس ما كان عليه الأمر في الماضي حيث كان المجال القروي والقبلي هو المركز الأساسي للتحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية . بناء على ذلك يصيغ الباحث أسئلته المحددة لمحاور البحث في ثلاث :

- ماهي خاصيات الحقل الديني ومتغيراته قبل الحماية وبعدها؟ كيف سيتهيكل الحقل الديني منذ الاستقلال إلى الآن؟ ما هي مستويات إعادة الهيكلة تلك؟ ماهي العلاقة بين ظهور شرعيات دينية مضادة والمهدوية في الحقل الديني؟

- إذا ما كانت المدرسة أهم ادوات الدولة في إرساء التجانس والانسجام الديني ، فما هو دور النسق التعليمي في إنتاج بنية توزيع

الرأسمال الديني؟ ما هو الدور الذي تلعبه في عملية توحيد سوق المصالح الرمزية وكذا في فرض تعميم الشرعيات الدينية والرمزية الجديدة وبالخصوص شرعية الأورثودوكسية السلفية؟

- ماهي حصة القيم الأخلاقية الدينية في تحديد آراء ومواقف الشباب المغربي المتمدرس؟ ما هي حصة المدرسة في تشكيل الخاصيات الثقافية للمتمدرسين من الشباب؟ ما هي المحددات الاجتماعية التي توسع من حقل ممارسة واستهلاك الشباب للمنتوج الديني المدرسي؟ كيف يتشكل الذوق والحاجيات الدينية للشباب المتمدرس؟

شغل ، وكما يبدو من بلاغة الأسئلة ، محمد شقرون العدة المفاهيمية لبيير بورديو لإرساء الفرشة النظرية التي سينظر بها إلى تاريخ الحقل الديني الاجتماعي قبل عقد الثلاثينات من القرن الماضي بعلمائه وشرفائه وصلحائه ، وبعدها العبور لقراءة إعادة هيكلة الحقل الديني وأسس بروز أنماط جديدة من الشرعية الدينية .

تحولات الحقل الديني وظهور الإيكليروس الجدد هو الفصل النواة للبحث . ضمنه يرصد محمد شقرون تحولات الثقافة الدينية ، والتي يربطها في مجموعها بمختلف التمظهرات الهادئة والعنيفة التي اتخدتها الوضعية المأزومة للعلماء . (الصراعات والهجومات التي شنها شيوخ الزوايا والحركيين الاسلاميين ضد العلماء) ، والتي كانت نتيجتها استدخال الثقافة الدينية لمعارف دنيوية ولائكية ومعرفية لم تعهدها من قبل . يتعلق الأمر ببروز نخبة وجيل جديدين من الإسلاميين .

موازاة مع ذلك سيتحول المسجد إلى فضاء للتعبير عن هاته الثقافة الدينية الجديدة .

يقول محمد شقرون : في سياق الصراع لأجل السيطرة على المسجد ، بما هو محكمة سياسية ثقافية ، ستتخد كل الرهانات الثقافية بالمغرب دلالتها . رهانات ستتجذر بالتحول الثالث والذي يعتبر فيه الباحث أن الإسلاميين سيحولون الأوضاع الاجتماعية الهامشية التي ولدوا من رحمها إلى نموذج مثالى لبناء طوباهم وشرعنة مهدويتهم . واللتان سيشتغلان ويشغلان كمجيش للحراك الاجتماعي والسياسي الديني وفي الآن نفسه كمتخيل يسهل عملية الاستقطاب .

في هذا السياق سيتخذ الباحث في فصله السادس شيخ العدل والإحسان ، عبد السلام ياسين كنموذج لقراءة تمفصلات الطوبى والمهدوية في الدعوة الإسلاموية وكذا قياس مدى تأثيرها على الشباب وبالضبط شباب الثانويات . ستتشكل عينة البحث من تلامذة ثانويات ولاية الرباط سلا ، وستتوزع محاور الاستمارة على علاقة المتمدرسين الشباب بممارسة الشعائر الدينية وقراءة الكتب الدينية والبرامج الدينية السمعية البصرية . نتيجة البحث يكثفها محمد شقرون كالتالي : نستنتج بأن أجوبة الإسلاميين على الطلب الإيديولوجي للشباب المتمدرس ليس مقنعا بما فيه الكفاية خصوصا حينما يتعلق الأمر بالحاجيات المباشرة للشباب . إن بعدية التمتع بالحياة وراديكالية ونسقية البحث عن الخلاص لدى الإسلاميين

ستنقلب عليهم أمام الامتلاء بما هو مباشر وعيني ومحسوس لدى الشباب . بالنسبة للإسلاميين المشكلة هي مشكلة معنى وبالنسبة للشباب المنحدر من أوساط فقيرة المشكلة عملية ومباشرة : الشغل ، المرض . . .الخ .

إنها خلاصة الفصل الثاني والتي يرافقها في خاتمة الكتاب بخلاصة عامة عن الحقل الديني السياسي بكل رهاناته ، يمكن اعتبارها أطروحة المؤلف الباحث . الاستقلال حسب محمد شقرون لن ينجز سوي إعادة ترتيب جديد ة للحقل الديني ولفاعليه . فعوض سلطان غائر في تناقضاته ولا تجانسه تم إرساء سلطان موسوم بعلاقات قوة غامضة ومبهمة . يجب التركيز في هذا الشأن حسب شقرون على عملية المخزنة والمركزة للدين والإسلام وذلك عبر إرساء دولة مركزية عازمة على إدماج جميع العناصر الدينية والاجتماعية التي تتمتع بامتلاك منطقها الخاص لإرساء السلطان الديني . هاته المخزنة خاصية أساسية لفهم تشكل الحقل الديني المتراتب والمبنين إلى حدود يومنا هذا .

إدريس بنسعيد . . . سوسيولوجيا التعبيرات الدينية

إدريس بنسعيدمن السوسيولوجين المغاربة الذين انخرطوا مبكرا في الرصد السوسيولوجي للحركات الإسلامية بحثا وتأطيرا . وبما أنه ليس من الذين يحبذون الظهور كلما تحركت هاته الحركات يمينا

أو شمالا ، فقد فضل متابعة البحث وتأطير وتوجيه الطلبة الراغبين ركوب مغامرة البحث في الموضوع . مؤطر جيد وجدي وموجه مفيد وأستاذ حامل لتواضع العلماء كما يشهد على ذلك الكثير من طلبته الباحثين . ظل بعيدا ومبتعدا عن صراعات الزعامات الصغرى التي ظلت تعج بها شعبة السوسيولوجيا بجامعة محمد الخامس بالرباط . هو الآن منسق مجوعة البحث في الدراسات السوسيولوجية ، إلى جانب كل من رحمة بورقية والمختار الهراس وحليمة بنموسى . ساهم مع زملائه في مختبر الدراسات ذاك في دراسات سوسيولوجية همت الثقافة والخصوبة وانصبت على دراسة السلوك الإنجابي بالمغرب ، وكذا قيم الشبيبة الطلابية واستراتيجياتها . أغنى مؤخرا حقل الدراسات السوسيولوجية ببحث ميداني حول الشباب والحجاب بالمغرب ، وقد أنجز الدكتور بنسعيد هاته الدراسة بتعاون مع الجمعية الديموقراطية لنساء المغرب وعبر الاستعانة بأعضائها للإنجاز الميداني . (تعاون من المفترض أن يتسع مداه بين الفاعلين المدنيين والباحثين السوسيولوجيين) .

يقول إدريس بنسعيد عن الهدف العام من هاته الدراسة : ونحن ننجز هاته الدراسة ، ظل هدفنا هو المسح والرصد والتشخيص وليس اتخاد موقف أو اصدار أحكام . وبناء على ذلك استهدفت الدراسة تملك معرفة فعلية بالتمثلات المختلفة المشكلة من طرف الشباب بجنسيه ، حول الحجاب . وذلك لأجل فهم عميق للأسباب

الدفينة التي توجد وراء إقدام العديد من الشابات على ارتداء ووضع الحجاب . ثم تقييم الأثر الذي تلعبه وسائل الإعلام في الإقدام على هذا الاختيار وأخيرا رصد تأثيرات الحجاب على درجة وطبيعة مشاركة الفتيات في الأنشطة السياسية والجمعوية .

تشكلت عينة الدراسة من طلبة وتلامذة الرباط ونواحيها وكذا من الفاعلين الجمعويين الذين تتراوح أعمارهم ما بين 15و 25 سنة موزعين على خمس مجموعات أو أنوية متساوية التمثيلية بين المحتجبات وغير المحتجبات .

انتظم معمار الدراسة ، بحكم طبيعتها الكيفية وليس الكمية ، وبناء على عملية تفريغ المعطيات المحصلة وتركيبها ، في شكل أعمدة ومحاور شكل مبتدؤها رصد تمثلات المستجوبين للحجاب ولرمزيته . ومما يثير في هذا الباب هو إضافة إلى اعتبار الحجاب علامة هوياتية ذات بعد ثقافي ديني معلنة في وجه الغرب ، فقد اعتبر وسيلة من وسائل تحرر المرأة وصمام أمانها في ولوج الحياة العملية دون خوف أو ارتباك . إنها لا تشكل أي موضوع للإثارة الجنسية أو الأخلاقية . إن اختيار الحجاب ، حسب معطيات الاستجواب ، يمنع جسد المرأة من أن يكون موضوعا معروضا للنظرة العمومية والذكورية للمجتمع . بعد محور الأسباب الداعية لارتداء الحجاب ، يحضر هذا الأخير في علاقته بسؤال آليات الإدماج والإقصاء . وفي سياقه تعتبر المستجوبات أن أشد أنواع الإقصاء التي يتعرضن لها هي تلك المتعلقة بعدم تكافؤ

الفرص حينما يتعلق الأمر بفرص الشغل في القطاعات العصرية ، حيث يعتبر الحجاب موقفا ضمنيا من العلم والحداثة والليبرالية .

ومن بين الملاحظات التي سجلها الدكتور بنسعيد على هامش منطوقات المستجوبين كون الفتيات غير المحجبات يعانين من الإحساس بالذنب وهو ما جعل اجوبتهم عبارة عن بحث مضن عن جميع العلل المبررة لعدم ارتداء الحجاب . في حين يعتبر الذكور أكثر تشددا في التركيز على الحجاب بحجة أنه دليل وبرهان الأخلاق الحسنة المفترضة في الزوجة المستقبلية .

الحجاب والموضة هو أكثر المحاور إثارة في الدراسة . يقول بنسعيد بناء على استقرائه للأجوبة المحصلة في هذا الباب : ارتداء الحجاب موضوع حقيقي عند الشباب المغاربة . عكس ذلك وموازاة معه ينزلق الحجاب لدى غالبية الشباب من خانة المقدس والنضالية الحاضرة بكثافة لدى شبيبة الثمانينات ، إلى خانة الموضة الدنيوية . الآن ، يتابع بنسعيد ، يعتبر الحجاب اختيارا عاديا من اختيارات الشابات للباسهن والذي يخضع ، أي هذا الاختيار ، إلى الميولات الشخصية ومتطلبات الموضة وليس لاعتبارات الهوية .

من بين الخلاصات الأساسية لهاته الدراسة ، يسجل بنسعيد :

- الموضة هي المعيار الرئيسي لنوع الحجاب ولألوانه وشكله .
- تمتلك المحجبات معارف متناثرة وجزئية عن الأحاديث النبوية والآيات القرانية المتعلقة بفعل الاحتجاب .
- غالبا ما يكون الحجاب موضوعا لتفاوض أسري ، بحيث يعتبر

المدخل الآمن للفتاة إلى التعليم الإعدادي والثانوي ، حيث يحضر الاختلاط الجنسي .

- مازال جسد المراة في حضوره العمومي محط رهانات سياسية حاسمة . فإذا كان الإسلاميون يعتبرون المحجبات امتدادا جماهيريا لبرامجها ، أجندتها النضالية ، فإن الأحزاب الديموقراطية لا تزال سجينة الصورة النمطية التي تربط ميكانيكيا بين الاحتجاب واختيارات سوسيو سياسية معينة ،و هو ما يشكل عائقا امام التحاق المحجبات بها وكذا امام فعل ادماجهن داخل التنظيمات المدنية والسياسية اليسارية .

الملكية والإسلام السياسي

أصدر محمد طوزي كتابه هذا سنة 1999م ، وهو من الكتب المميزة في هذا المجال خصوصا إذا ما قارناها مع إنتاجات أعلام المراكز الفرنسية المتخصصة في ذات الموضوع . كتاب يلج فيه محمد طوزي مغامرة التحليل السوسيوتاريخي للنسق السياسي ، بكل ما تستدعيه من تمييز بين إيقاعات المدد التاريخية وغوص في المدة الطويلة لاستكناه السيرورات والتغيرات وضبط الثوابت والاستمراريات . يستهدف المؤلف الكشف عن الأسس العميقة للثقافة السياسية المغربية . وذلك لأجل فهم الكيفيات التي سيشكل بها المغرب تدريجيا مجاله السياسي وكذا علاقات السلطة . لينفتح بعد ذلك

على تجربة الإصلاحات السياسية التي دشنت مع تسعينات القرن الماضي والتي سيكون مؤداها تجربة التناوب السياسي بقيادة عبد الرحمان اليوسفي .

يقدم طوزي كتابه بوصفه عملا يتمحور حول ثلاثة أعمدة كبرى وتتمثل في : أولا إنجاز التحليل التاريخي للسلطان المخزني ومعه آليات انتشار واتساع ثقافة السلطة والخدمة وثانيا تحليل أنماط وكيفيات اشتغال الحقل السياسي وأخيرا جرد وكشف عناصر القطيعة والاستمرارية في عمليات المساءلة السياسية والدينية للنسق التقليدي وذلك عبر دراسة الحركات الاسلامية المغربية . (العدل والاحسان والدعوة والتبليغ وحركة الإصلاح والتجديد والدعوة والتبليغ) . يمنح الكتاب حيزا مهما للحفر التاريخي سواء عبر الشق المتوجه إلى رصد ثوابت النموذج السياسي الخليفي والصوفي والمخزني وذلك ضمن استراتيجية إرساء ما يسميه محمد طوزي بأركيولوجية الخدمة أو الاستعباد . والتي تجد جذورها في الأساس اللاهوتي للسلطة الساسية (أحدية الله وأحدية الخليفة) . وبعدها يعبر إلى نهاية القرن التاسع عشر لرصد موقع السيبة في جغرافية السلطة ورصدها بوصفها الهامش الذي يخرج بها السلطان مركزيته وأحديته للتداول وذلك قصد إعادة الإدماج والمركزة من جديد . آليات السيطرة وبأسسها التاريخية تلك أدت إلى إرساء لعبة معقدة يتمفصل داخلها النمط التقليدي للسيطرة مع التعبيرات المؤسساتية العصرية (ثنائية المخزن والملكية الدستورية

والرعية والمواطنة . . .) .

يتعلق الأمر بعد ذلك ، وعبر تحليل آليات اشتغال الحقل السياسي والذي تشغل فيه المرجعية الإسلامية موقعا مهما ، بتركيز التحليل على المرجعيات الرمزية واستراتيجيات الشرعية . إن تاريخ العلاقة بين الدولة المغربية والتعبيرات الدينية المنافسة ، يقول محمد طوزي ، يكشف غموضها الناتج عن الخاصية المزيجة للكتلة الحاكمة . فكل فاعل سياسي يبلور استراتيجيته الخاصة والتي تجيب عن مصالحه . فالملك بحكم شرعيته الدينية وإمارته للمؤمنين لا يمكنه قبول الاعتراف المباشر بالتعبيرات الدينية المنافسة . في حين تستغرق الإدارة بحكم مهمتها في ممارسة دور المراقبة والوقاية من كل حركة ذات توجه ديني وذلك عبر تكوين العلماء ومراقبة المساجد . استراتيجية الملك تركب بين البعد السياسي الكامن في إضعاف العلماء والمحافظة على التعددية الدينية والبعد المذهبي الديني المتمثل في مركزة التأويل الديني وإضفاء طابع القداسة على شخصه بمرتكز الانتماء الشريف إلى النبي . شخصية الملك مقدسة ولا يمكن تعرض قراراتها لأي اعتراض قانوني . وبسبب ذلك فإن كل مشاريع ومحاولات إصلاح النسق السياسي ومأسسته تغاضت عن هذه الخاصية المميزة للسلطان السياسي المغربي ولنفس السبب فإن الأحزاب السياسية ترددت كثيرا وطويلا في قضية فصل السلط والحد من مسؤوليات الملك . استراتيجية الفاعلين السياسيين الأساسية هي البحث عن موقع

في شبكات الزبونية تمكنهم من مراقبة الثروات المادية والرمزية وكذا الاستفادة منها . يرسي محمد طوزي مؤدى تحليله لكيفيات اشتغال الحقل السياسي بالكيفية التالية : تتراوح الاستراتيجيات المتبعة من طرف كل الجماعات الاجتماعية (قبائل ، ،جمعيات ، أحزاب سياسية ، نخب مثقفة ، نخب اقتصادية . . .) بين القرب من القصر والذي يولد السلطة والتأثير أو التمرد .

في المحور الثالث والأخير يقوم محمد طوزي بجرد عناصر القطيعة والاستمرارية في العلاقة بين الحركات الاسلامية والسلطان السياسي . يقدم الكتاب مونوغرافيات للحركات الدينية السياسية موضوع البحث ويسجل خلاصتين مهمتين في مجال موضوعنا . يسجل طوزي تعقد تركيبة الحقل الديني واللعبة السياسية . وضمن رصد ذاك التعقد يسجل المتغيرات العديدة التي عاشها ويعيشها الحقل الديني سواء في علاقاته بالسلطة أو بالمجتمع ،لقد تشبعت علاقة المسلم بالإسلام بتغيرات شتى مثلما تشبعت علاقة الإسلاميين بالمسلم بتغيرات عديدة . لم تعد حدود المقدس واضحة ولم تعد معها حدود الدنيوي راسخة . مثلما لم تعد الحدود واضحة بين ثقافة السلطة لدى الإسلاميين وثقافة السلطة المخزنية . بخصوص الإسلام في اليومي يورد محمد طوزي حادثة طريفة ودالة عن امرأة بيضاوية ميسورة وذات هيبة وإن كانت لاتعرف القراءة والكتابة ، كانت تقل الطائرة الرابطة بين البيضاء وباريس . وإلى جنبها كان هنالك مسافر مسيحي . سبحتها

في يدها وشفتاها لم تتوقفا عن الدعاء والاستلطاف لله طيلة مدة إقلاع الطائرة . وبعد حصول ذلك وحدوث التوازن دعت المستضيفة وطلبت منها كأس ويسكي مضاعف . لم يتمالك جارها المسيحي نفسه من هول التناقض وكان أن أجابته بهدوء كامل : (السبحة لله أما لويسكي فهو لي) . أما بخصوص الإسلاميين فيقول : الإسلاميون أنفسهم متشبعون بثقافة مخزنية لا تترك أي مجال لمبادرة المؤمنين سواء كانوا رعايا الملك أو رعاياهم .

إنها نتيجة العودة إلى التاريخ في مدته الطويلة والتي تظهر أن النسق الديني السياسي لا يحتضن حقلا وحقلا آخر مضاد بل يخضع للاستمرارية وكل متغيراته تحدث داخل هاته الاستمرارية .

عيب علم السياسة هو أنه يقرا الوقائع في مدتها القصيرة ويبني عليها خلاصات يكون عمرها أقصر من عمر الوقائع . لهذا يظل البعد التاريخي في مدته الطويلة أرحب لقراءة مواقع التغير وخيوط الاستمرارية بعيدا عن الضجة التي تتخدها الوقائع وهي تنفجر على سطح الواقع . ذاك ماقام به محمد طوزي في كتابه هذا وكانت نتيجته مجاوزة أطروحة التضاد والاكتفاء بلفظة التعبيرات الدينية المنافسة .

في إحدى حواراته بجريدة أخبار اليوم (عدد 104) سيذهب محمد طوزي هاته المرة ليس إلى أبعاد أطروحة التضاد وإرساء بلاغة التنافس بل سيعتبر العدل والحسان : من الروافد الأساسية التي تؤسس الإسلام المغربي . وهذه القناعة تشترك فيها مع النظام السياسي

والتي تعطيها مكانة متميزة داخله . . إنها في قناعة النظام السياسي معطى إيجابي . . . وتقوم اليوم بدور هام وإيجابي في مجال التعبئة والتنشئة السياسية . إنه النسيان . نسيان المدة الطويلة والعودة إلى المدة القصيرة . نسيان التاريخ والاستغراق في الراهن . هجرة السوسيولوجيا التاريخية والعودة إلى علم السياسة .

محمد طوزي . . أطروحة الحقل والحقل الديني السياسي المضاد

الحقل والحقل الديني السياسي المضاد بالمغرب هو العنوان الذي منحه محمد طوزي لأطروحة دكتوراه الدولة وهو أيضا الأطروحة الموجهة للبحث برمته . لا يمكن لقارئ هاته الأطروحة إلا أن يعجب بحسن اختيار الموضوع وجرأته خصوصا وأن إنجازها واكتمالها تم سنة 1984م وهو ما يعني أن الاشتغال فيها قد غطى سنوات قبل ذلك . إنها الأطروحة الأولى في المجال التي ينجزها مغربي ، وتتضمن فعلا أطروحة ، منجزة بعمل نظري وتحليلي وميداني . غطت الأطروحة أهم أعمدة الحقل الديني السياسي المضاد . اعتمادا على الوثائق وكذا المقابلات المباشرة . وإذا ما استثنينا الشبيبة الإسلامية التي لم يتمكن محمد طوزي من التوسع فيها بحكم ، كما يقول ، سرية الجماعة من جهة والأعضاء الذين تحدثت اليهم لم يظهروا لي ما يثبت انتماءهم إلى الجماعة . فإن تحليل باقي المكونات (البوتشيشية والدعوة والتبليغ والعدل والإحسان) قد تم باستفاضة وعلى مستويات متعددة (المستوى

التنظيمي ، المذهبي ، التاريخي . العلاقة مع العلماء ومع المكونات الأخرى ، العلاقة بالنظام السياسي . . .) . لقد اشتغلت على هاته الأطروحة في خزانة الرهبان بالرباط (لاسورس) وعدت إليها غير ما مرة لأغطي بياضا من بياضات أطروحتي الأكاديمية الأولى والثانية . وفي كل مرة كان يتأكد لي عمق الاطروحة في كل مفاصلها ، ما عدا عمودها الفقري والمتمثل في إرساء علاقة التضاد بين مكونات الحقل االديني السياسي بالمغرب .

لا تظهر الأطروحة الأكاديمية بوضوح أطروحتها العلمية ، بل عكس هذا تمنح مؤشرات على نقضها . إذا ما جمدنا مؤقتا حركة الشبيبة الإسلامية التي ستعلن سريتها وقطعها مع النظام السياسي سنة 1975م على إثر تورطها ، كما يقول محمد طوزي في اغتيال عمر بن جلون ، فإن كلا من الدعوة والتبليغ والبوتشيشية والعدل والإحسان (التي شكلت آنذاك ولازالت قمة المعرضة الإسلامية) لا تمنح الأطروحة عنهم ما يبرر موقعتهم في الحقل المضاد . عن العدل والإحسان مجسدة في شيخها عبد السلام ياسين . وعن خطابها الناري الموجه عبر رسالة الإسلام أو الطوفان إلى الملك الحسن الثاني تقول الأطروحة ، إن الرسالة تدخل في سياق النصيحة ، وهو تقليد للعلماء تجاه الحكام ، وضمنها لا يتردد الشيخ ياسين عن التذكير بشرفه وهو ما يجعله حسب الأطروحة دائما ، ينهل من نفس منابع الشرعية الملكية ، وأثناء انتقاد الرسالة لوضع المغرب يستعيد ياسين

التذكير مرة ثانية بشرفه ويسطر إلى جانب ذلك بأنه لا يفقد الثقة في الملك لأنه شريف . يقول محمد طوزي بناء على كل هذا : إن نقد ياسين لا يتجاوز حدود النسق . ص :389 . وتسترسل الأطروحة في عرض مشروع الجماعة ومنشوراتها . معطيات واستنتاجات تسير كلها ضد أطروحة الاطروحة .

في بحثه الميداني بمعية برونو ايتيان والمنشور في كتاب المغرب الكبير المسلم خلال سنة 1979م . يقول الباحثان في مستهل البحث : بالمغرب تشكل الجمعيات الإسلامية حركات أو موجات رفض يمكن موقعتها ضمن النسق المضاد . ص : 244 . وتضع الدراسة البوتشيشية ضمن صنف الإسلام الباطن وسيكون عدم اندماجها في الحقل الشرعي بحكم خطابها المختلف وعدم تلقيها أي شيء من وزارة الأوقاف سند هذا التصنيف . وهو ما يبعث على أكثر من استفهام . بعد البوتشيشية عن السياسة وعن أي تماس مع الملك وإمارة المؤمنين هو ما دفع عبد السلام ياسين لمغادرتها ، أما وضعها الحالي فليس قطعا مع تاريخها المضاد بل تدرجا داخل نفس الحقل بمتغيرات شرفه وبركته وطرقيته . .

يقال عن هيغل أنه يصعب جدا على والج الفلسفة أن ينفلت من نسقه سلبا أو ايجابا ، وبالمغرب يصعب جدا على الباحث في العلوم الاجتماعية أن ينفلت من أطروحة عبد الله العروي حول الاستمرارية والتغير وهو يحلل ظواهر المجتمع المغربي التاريخية والسياسية والدينية

والتمثلية .

في كتابه الملكية والإسلام السياسي سيعود محمد طوزي إلى أطروحة العروي لرصد هاته المرة أنماط الاستمرارية والتغير بين مكونات الحقل الديني السياسي بالمغرب . وستتوارى أطروحة التضاد غير المقنعة تحليليا .

في الصفحة 20 من مقدمة الكتاب يعلن محمد طوزى للقارئ مفاصل الكتاب والذي ضمن محوره الرابع سيقوم بعملية جرد لعناصر القطيعة والاستمرارية في كيفيات المساءلة السياسية والدينية للنسق التقليدي وذلك عبر دراسة الحركات الإسلامية المغربية . الحركات التي سيتطرق لها الكتاب هي نفسها التي تناولتها الأطروحة مع فوارق في الزمن واستحضار جماعة الإصلاح والتجديد عوض الشبيبة الإسلامية . يقول محمد طوزى في الصفحة 22 : الدراسة المونوغرافية للحركات الإسلامية تظهر عناصر القطيعة بين ثقافة النظام وثقافة الإسلاميين ولكن أيضا عناصر الاستمرارية القوية .

قد يكون من بين العوامل المساعدة على تغيير لون الأطروحة هو اختيار السوسيولوجيا التاريخية كمنهج وكمقاربة في هذا الكتاب . ولنا عودة إلى كتاب الملكية والإسلام السياسي وآخر تطورات أطروحة التضاد داخل الحقل الديني السياسي بالمغرب .

حسن رشيق . . سيدي شمهروش سلطان الجن

حسن رشيق من السوسيولوجيين المغاربة الذين يشتغلون على تخوم السوسيولوجيا . أو لنقل إنه يشتغل في المجال السوسيوأنثروبولوجي . أستاذ بكلية العلوم القانونية والاقتصادية بالبيضاء وأستاذ زائر بجامعة برينستون الأميريكية . عضو مؤسس لمراكز بحث علمية متعددة . وله مساهمات متعددة سواء في شكل مداخلات أو كتابات فردية وبالاشتراك مع باحثين آخرين . دشن مساره العلمي بمؤلفين هما في الأصل عمل واحد موزع تيماتيا إلى بابين . المقدس والتضحية الصادر سنة 1990م وسلطان الآخرين الصادر سنة 1992م وبعدهما سيصدر سنة 2000م سبل الحفاظ على الترحال . وهو بحث خص الرحل المنتمين لقبيلة بني مغيل بالمغرب الشرقي على الحدود مع الجزائر . ويمكن اعتبار البحث إرساء للجواب عن السؤال : ما ذا تبقى الآن من الترحال ، أمام التغيرات البنيوية والسياقية وقفزات التاريخ والمناخ والسوق؟ كيف نظل رحلا خصوصا والقانون الذي يحكم الرحل هو إما ان تظل متحركا أو ستتعرض للزوال . وبنفس الاستراتيجية المنهجية التي ظل ولازال يعتمدها رشيق والمتمثلة في رصد أشكال التغير والحركة وأنماط التوترات والصراعات التي تتولد عنها بين الفاعلين في الظاهرة والمشكلين لها سيرصد تغيرات الترحال وتحولاته وكذا تحولات العالم المحيط به (ظاهرة النقل الحديث خصوصا) ليخلص إلى أن تكيفات النسق الترحالي مع هاته المستجدات ستحوله في النهاية

إلى نسق انتقائي .

يعتبر الجزء الأول من بحث حسن رشيق (المقدس والتضحية) مدخلا موسعا للجزء الثاني (سلطان الآخرين : الطقوسي والسياسي بالأطلس الكبير) . ضمن الجزء الأول يرسي تباعده مع التصور الدوركهايمي للمقدس والمدنس ويرفع تعارضهما الكامل اعتمادا على مكتسبات الانثروبولوجيا الفينومينولوجية (ميرسياالياد وآخرون) من جهة ومن أخرى اعتمادا على طبيعة الموضوع (المعروف) التى لا تعرف القطائع بين العالمين . المعروف أو الوجبة الطوطمية كما ينعتها كل من دوركهايم وسيغموند فرويد هي موضوع الجزء الأول . إنها الوجبة التي تهدى لأهل الضريح وزواره ومن قواعدها أن تأكل جماعة (بالمغرب وجبة الكوسكوس يمكن اعتبارها النموذج المثالي للمعروف أو الوجبة الطوطمية) . يقول حسن رشيق : دراسة المعروف تمنح الامتياز للبعد الثقافي وذلك عبر مقاربة الطقس بوصفه نسقا من الرموز وخطابا حول العالم والمجتمع . أما التاويل فيستهدف استنباط الفكر والتصور المحلين للناس الذين ينجزونهما . ومن دونا إغفال هذا البعد فإن دراسة طقس سيدي شمهروش ستمنح الأهمية للعلاقات المختلفة الموجودة بين الطقس والحياة السوسيوسياسية للقبيلة .

سلطان الآخرين بحث في الموسم الذي ينعقد سنويا حول ضريح سيدي شمهروش المعروف لدى المغاربة بسلطان الجن . شمهروش جني لكنه ليس كالجن لأنه سلطانهم . وهو لا يحكم الجن سوى

ليلة الخميس . إنه سلطان الجن وهو سلطان الإنس أيضا . فهو ولي الإنس وسلطان الجن يقصده الزوار في كل ما يخص عالم التملك والملوك والجن ويقدمون له زياراتهم وأضاحيهم . من يسهر على نظام وتنظيم الموسم؟ ماهي قواعد تقسيم الزيارات والأضاحي؟ ماهي نوعية العلاقة بين أحفاد وورثة الولي سيدي شمهروش والقبيلة المحتضنة لضريح الولي؟ كيف يتم توزيع المهمات الطقوسية بين هؤلاء؟ ما نوعية العلاقة بين توزيع الأضحية والسياسة المحلية . ما نوعية العلاقة بين المقدس والطقوسي والسياسي داخل موسم سيدي بن حمدوش؟ إنها الأسئلة الكبرى التي يبحثها الكتاب ويجيب عنها على امتداد فصوله الستة . في صيغة مكثفة تعلن بأن الطقس هو حقل رهانات سياسية إنه السياسة في صيغتها المحلية وقد تغلفت بألوان الطقس وعدته الأضحوية والشعائرية . واشكال الزعامات الأسرية والقبلية والتنافسات المصلحية . أن التضحية يقول حسن رشيق ليست إنجازا دينيا فقط بل إنها فعل سياسي أيضا ، وتعريفنا لها يجب أن يأخد هذا البعد المزدوج بعين الاعتبار . والطقس يضيف نفس الباحث لا تقف مهمته عند حدود تأكيد المبادئ البنيوية المركزية للمجتمع . بل إنه ذاته في صلب السياسة المحلية : إنه يخضع لنفس المبادئ التي تسير بها وتخضع لها باقي الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية .

يقول الأنثربولوجي الأميريكي دافيد م . هارت في تقديمه لكتاب حسن رشيق : النقطة الأساسية والأهمية الكبرى لهذا البحث يكمنان

في كون البحث ليس دراسة أنثروبولوجية عادية لطقوس الصلحاء . بل إنه وكما يوضح ذلك العنوان الفرعي : الطقوسي والسياسي . يتضمن بعدا سياسيا . إنه بحث وتقص للسياسة على المستوى المحلي على امتداد ثلاثة عقود من الزمن . هذا النشاط السياسي المتصل بطقس سيدي شمهروش هو حصيلة الصراع والتعارض بين عائلة آيت بلعيد التي ظلت تمتهن وظيفة المضحي وقبيلة آيت مزان الصغيرة .

مصطفى محسن . . . سوسيولوجيا الخطاب

مصطفى محسن الأستاذ بمركز التوجيه والتخطيط التربوي بالرباط والأستاذ الزائر بالجامعة المغربية ، من السوسيولوجيين المغاربة النشيطين على مستوى الحضور الفاعل في السياق الثقافي والمدني . مشتغل منذ سنوات على الخطاب التربوي المغربي وعلى هامشه متتبع لقضايا المجتمع ومتدخل فيها بالمحاضرة والتأليف . المسالة التربوية والمعرفة والمؤسسة : مساهمة في تحليل الخطاب الفلسفي المدرسي ، والخطاب الإصلاحي التربوي وأسئلة التحديث في الخطاب التربوي والتعربيب والتنمية والتربية وتحولات العولمة ونحن والتنوير وقضية المرأة والتنمية السياسية : في سوسيولوجيا الإصلاح والتحديث والتحول الديموقراطي في المغرب المعاصر ، ومقالات عدة في بطون المجلات المغربية والعربية ، كلها من توقيع مصطفي محسن على امتداد سنوات عديدة من البحث والتأطير التربوي . متن يصعب

تركيبه في مجموعه ، لكن الامساك بالخيط الرابط في هذا المسار قد يكون مهونا لتلك العملية . يعلن مصطفى محسن منذ مبتدئ مساره عما يسميه مشروعه المعرفي والنظري والذي ليس شيئا آخر غير المشروع النقدي الحواري المنفتح والمتعدد الأبعاد . إنه دائما حسب الباحث مشروع أو آلة للتفكيك والفهم وبسبب ذلك فهو بذاته في حاجة دائمة للنقد والتطوير والتجاوز . يستهدف هذا المشروع النقدي محاور إبستيمولوجية كبرى ، يكثفها مصطفى محسن في نقد الذات في كافة أبعادها المعرفية والسوسيوتاريخية والحضارية . إنه النقد في درجته الأولى والأساسية . ثم نقد الآخر أيضا في كافة أبعاده المعرفية والسوسيوتاريخية والحضارية . إنه النقد في درجته الثانية . وأخيرا نقد اللحظة الحضارية العامة على كافة المستويات المعرفية والسوسيوتاريخية . . .

ضمنيا يمكن اعتبار مؤلفات وأبحاث مصطفى محسن خطى في مسار إنجاز هذا المشروع . لقد انصب النقد على الخطاب التربوي سواء في العلاقة بين المؤسسة بكل رهاناتها وقواعدها والمعرفة بكل مستلزماتها الفكرية والنقدية والمنهجية ، وكذا على مواثيق الإصلاح التربوي وأنماط الخطاب المرافقة له سواء من طرف الفاعلين التربويين أو من طرف مدبريه ومنجزيه ، وانصب النقد كذلك على التعريب وانماط الصلات والاختلالات التي ستجرفها معها العولمة ، ومقابل كل هذا النقد الموجه للذات سيفتح مؤلف نحن والتنوير النقد على الضفتين

معا : النحن والآخر . نقد لن يسجن نفسه في الخطاب التربوي بل سيعبر إلى اللحظة الأساسية والتاريخية الشاملة والمتمثلة في السياق السياسي والتاريخي العام الذي سيؤدي بالمغرب إلى أن يعيش تجربة التناوب السياسي التوافقي (مؤلف التنمية السياسية) . وإلى جانبه خوض غمار التفكير مع الفاعلين في قضية المرأة بشكل عام . في قضايا الفتاة القروية بتربيتها وتعلمها ومعيقات كل ذلك من شروط سوسيواقتصادية وإيكولوجية وسوسيوثقافية . . . ليصب التفكير كله في الكشف عن التنمية المعطوبة كما يسميها مصطفى محسن .

منهجيا يشتغل مصطفى محسن بالمعطى المعرفي النظري والتارخي والمعطى الكمي الإحصائي الرسمي وغير الرسمي .ليس في الأمر عيبا أو نقصا . إذا ما كان الأمر يتعلق بالتأسيس النظري والإبستيمولوجي لمدرسة أو مذهب سوسيولوجي ، كما كان عليه الحال مع مؤسسي المدرسة الوضعية الفرنسية (مارسيل ماوس لم يشتغل أبدا بالميدان مثله في ذلك مثل إيميل دوركهايم) ، لكن حينما نكون في سياق مماثل لمجتمعنا بكل ظواهره وبنياته المعرفية ، (مجتمع لم تلج بعد كل قضاياه الحقل السوسيولوجي ، وتعقد ظواهره وتشابكاتها يتطلب ضرورة أدوات منهجية مغايرة أكثر متانة وفعالية وعلى رأسها المقاربة الميدانية بشقيها التجريبي والنظري) فإن المقاربة بالمعطى التحليلي والإحصائي لا يكفيان معرفة الظواهر فبالأحرى تفكيكها ونقدها . أو بصيغة أخرى لن تكون المعرفة المنتجة بخصوصها غير صناعة خفيفة

على خطوط التماس مع الخطاب الصحفي والايديولوجي .

لا توجد لفظة المشروع عند بول باسكون الذي كان يعمل لأجل التأسيس الميداني والإبستيمولوجي للسوسيولوجيا القروية ، مثلما لم يكن عبد الكبير الخطيبي صاحب النقد المزدوج يستلطف الكلمة ، ويفضل عوضها استراتيجة البحث والتفكير . الإستراتيجية توضع وتجزأ وترسم معالم إنجازها وتقبل المراجعة الجزئية والكلية وتقبل التفاوض مع شروط العمل والإنجاز ومحفزاته أو معيقاته وهي قبل هذا وذاك لصيقة بالحاضر وسيرورته سواء في العلم أو الحرب .ليس من سمات مصطفى محسن تضخيم ذاته أو أعماله بل إنه من السوسيولوجيين الزاهدين في محراب الكتابة والتأليف السوسيولوجيين ، وعطاءاته المتعددة ليست في حاجة لإعلان مشروع ضخم لن ينجز أبدا ، لا لنقص في الباحث بل في الشروط العلمية والتحتية للبحث السوسيولوجي من جهة وفي الطابع الفردي المحدود من حيث المكونات والتكوين المهني الميداني والإبستيمولوجي في المجال السوسيولوجي . السوسيولوجيا مهنة وصناعة أولا وإبداعا وتفكيرا وجهدا ذاتيا ثانيا ، وهو ما لم نجنيه ونحن طلبة ولا نقدمه لطلبتنا ونحن مدرسون باحثون .

لقد حول مصطفى محسن بتأليفة السوسيولوجية أسئلة الحقل التربوي نحو إشكالات ذات أهمية قصوى بالنسبة للمهتمين سواء كطلبة أو باحثين ، خصوصا إذا ما علمنا أنه ولج حقلا العاملون فيه (وليس الباحثون) منحوه طابعا تجاريا محضا وجعلوا منه مصدر ثراء

بئيس. لم ينتحل مصصفى محسن أعمال الكنديين والبلجيكيين، ولم يخضع لمتطلبات المباريات المهنية، مثلما لم يجعل من طلبتة الوقود المحترق، كي ينشر فيما بعد مجهوداتهم. لم يقم بكل هذا لأنه سوسيولوجي فعلا (يعتبر بيير بورديو السوسيولوجيا اختيارا اجتماعيا، لذا لا يلجها فعلا سوى المطهرون من المتاجرة بمجهود الآخرين ومن اقتناص ريالات الطلبة الأساتذة).

عثمان أشقرى... سوسيولوجيا الايديولوجيا

عثمان أشقرى أستاذ السوسيولوجيا بالمدرسة العليا لتكوين الأساتذة بتطوان، انخرط في الإنتاج السوسيولوجي منذ عقدين من الزمن. وظل مجال اشتغاله السوسيولوجي دائرا حول سوسيولوجيا التمثلات الجماعية بشكل عام وسوسيولوجيا الايديولوجيا بشكل خاص. تتوزع إنتاجات عثمان أشقرى إلى الإنتاج السوسيولوجي (في سوسيولوجيا الفكرالمغربي الحديث 1990م، المتن الغائب 1998م، الفكر الوطني بالمغرب 2000م، الحركة الاتحادية أو مسار فكرة تقدمية 2001 م العطب المغربي 2003م، علال الفاسي الوطنية والهوية المغربية 2006م، الوطنية والسلفية الجديدة بالمغرب 2007م) والانتاج الأدبي والذي حصد فيه جوائز مهمة على أعمال مسرحية مثل محنة الشيخ اليوسي ورجال الميعاد.. وأخيرا المواقف الفكرية (من أجل ثقافة علمانية عقلانية، رسالة عربية قصيرة في السياسة

واللاهوت، التنوير . .) .

منذ كتابه سوسيولوجيا الفكر المغربي الحديث (تكثيف لاطروحة أكاديمية) والذي يمكن اعتباره العماد الفكري والمرجعي لجل الكتابات اللاحقة، فتح أشقرى سؤال البحث في شروط ظهور الخطاب الإصلاحي إبان عصر النهضة، ومنذ منتصف القرن التاسع عشر . يتعلق الأمر بمراجعة ونقد الخطاب النهضوي بناء على ثلاث خصوصيات يحددها الباحث كالتالي :

- إذا كان فكر النهضة في الوطن العربي على امتداد المائة سنة الأخيرة هو في محتواه فكر ايديولوجي بالأساس فإن تجربة انبثاق ومعايشة هذا الفكر الايديولوجي لم تكن، ولا هي، واحدة وثابتة داخل كل المجتمعات العربية وبالخصوص نخبها المحلية : إن ثمة لا محالة خصوصيات ينبغي الكشف عنها وأخدها بعين الاعتبار ومن بينها خصوصية التجربة المغربية في إحدى مراحلها التاريخية .

- خصوصية التجربة المغربية تكمن في اقتران النهضة في المغرب بمفهوم الإصلاح وعدم تجاوزها لدائرته ايديولوجيا ومعرفيا، من جهة ومن أخرى اقتران الإصلاح بإشكالية سياسية طاغية (كيفية بناء السلطة السياسية الحديثة) وليس بإشكالية فكرية ونظرية .

- هاته الخصوصية المغربية تفرض مقاربة منهجية معينة، نعتها اشقرى بالمقاربة السوسيولوجية للايديولوجيات ولبروز وانتشار وتطور الأنماط الفكرية والثقافية ولما تقوم به من تفاعلات ووظائف

وتركيبات .

في سياق تحليله لشروط الظهورو البزوغ تلك ، يستعين أشقرا بالسوسيولوجية التاريخية في إبرازالبوادر الأولى لمشاريع الإصلاح بدء بما عرفته مع عهد السلطان المولى سليمان ، من احتراز من الغرب على المستوى الخارجي ومن الزوايا والطرق على المستوى الداخلي والتي كان مؤداها استيراد الايديولوجيا الوهابية وإلباسها اللبوس المخزني الرسمي ، بكل ما تبع ذلك من هجوم على الزوايا والقبائل التابعة لها وكذا رد هاته الأخيرة والذي وضع حدا لهذا العهد من الحكم . وبعدها العبور للحظة السلطان عبد الرحمان ابن هشام الذي في ظله سيتعرف المغرب بشكل مباشر وعنيف على الحداثة الغربية . وسينخرط على إثرها في فقدان جيوبه ومدنه وقراه ، وبموازاة ذلك ستحدث هذه الصدمة حسب أشقرا يقظة فكرية وذاتية للمغاربة في صراعهم مع الغرب مما سيضطرهم لخوض غمار الإصلاح والتحديث . وسيظهر ذلك في الكتابات التنويرية لمثقفي ا لقرن التاسع عشر ولا سيما رجال المخزن واعضاء الديبلوماسية الذين قاموا برحلات استكشافية للغرب وهوما سيشكل منعطفا اوليا لبداية الصلاح وكيفية الاستفادة من الغرب وحداثته المادية والمعنوية . سيشتغل عثمان اشقرى على متن مهم من هاته الاستكشافات والاسفار وستشكل المقابل النصي لمفهوم الخطاب الاصلاحي .يقول الباحث ، نعني بالخطاب الاصلاحي الدعوات الإصلاحية والكتابات النظرية والفكرية التي كان ينادي بها

المثقفون المغاربة سواء كانوا من رجال الدين أو المخزن أو رجال التجارة منذ مطلع القرن العشرين . وبناء على ذلك يتم العبور للقرن العشرين حيث ستظهر الحركة الوطنية في اطارها السلفي بجيل الرواد وبعدها التابعون والتلامذة ، وكذا انشطار الإصلاح إلى تياراته الثلاث حسب أشقرا والمتمثلة في التيار المخزني والبرجوازي والقومي الوطني . ليس الإصلاح وكما تصورته التيارات الثلاثة وبالخصوص ثالثها ، غير ايديولوجيا تبريرية في رأي عثمان أشقرا . إنه كذلك لأنه لم ولا يستهدف تغيير منطق السلطة القائمة بل فقط أشكال ومعطيات تمظهرها أي إزالة الصفةالاجنبية والاستعمارية عنها ، ليس إلا .

إنها الخلاصة التي يعيد الإصرار عليها في المواقف من التنوير (التنوير المجهض) والنهضة (النهضة الناقصة) والثورة (الثورة المهزومة) .

ينتصر عثمان أشقرا لأطروحة محمد عابد الجابري واستنتاجاته بخصوص الإصلاح والتحديث وأدوار وأوضاع المثقف المنشورة في كتاب : تطور الانتلجنسيا المغربية : الأصالة والتحديث في المغرب . مقارنة بالايديولوجيا العربية المعاصرة لعبدالله العروي ، مثلما يشغل العتاد المقولاتي لمحمد جسوس سواء في بيان تشكيلة المجتمع المغربي (المشروع الرأسمالي والمشروع المخزني) أو في تمييز تجربة الإصلاح المغربية وخطاب أهلها التنويري اعتمادا على مقولة الخصوصية . والتي شكلت أساس الأطروحة الكامل وجسر العبور من النهضة العربية إلى

المغربية ومن التنوير الأوروبي إلى التنوير المغربي ومن الحداثة الغربية إلى الحداثة المغربية .

الخصوصية مقولة ايديولوجية بامتياز (قد نعود إليها في فرصة قادمة) باسمها نتعايش مع التقليد ونحن نتوهم أننا نؤصله ونكيفه وننتقيه وباسمها نخلط بين التاريخ والأفكار : الحداثة ليست فكرة والتنوير ليس مجموعة أفكار فقط يكفي حضورهما في هذا النص أو ذاك لنقول إننا مالكون لإرث خاص بنا حول الحداثة والتنوير . وباسمها كذلك لم يستطع المجتمع المغربي بتنظيماته ومؤسساته أن يختار ما سماه العروي بالطريق الذي ليس منه بد . طريق الحداثة كاملة من دون تفاوض أو تكييف أو تجزيء أو تلوين . ذاك الطريق الذي اختارته الإنسانية وضحت لأجله . فكان أن شغلت موقعها المطابق في الزمن والتاريخ . إن اعتماد الخصوصية كمقولة تحليلية في السوسيولوجيا لا يعدو أن يحول في أية لحظة سوسيولوجيا الايديولوجيا إلى ايديولوجيا السوسيولوجيا .

عبد السلام حيمر . . . سوسيولوجيا تحديث المجتمع المغربي

اختطف منا الموت شهريوليوز من السنة الماضية ، بتواطئ حقير مع المرض ، الباحث المغربي والصديق العزيز عبد السلام حيمر ، وهو في منتصف ربيعه السادس . ولأنه مناضل يساري من طينة رفيعة

وباحث ومثقف متفرد فقد شيعه قياديو اليسار ومثقفو وباحثو البلد إلى مثواه الأخير ، رحل لكنه خلف لطلبته بجامعة المولى اسماعيل بمكناس ، وللباحثين أثره الذي لا يفنى . كان اللهيب السوسيولوجي الذي يحترق ويتجدد داخل جامعة لا تحتضن بنيتها وبنايتها شعبة مستقلة للسوسيولوجيا . فكان أن جاور أهل شعبة الأدب فمنحهم محبة السوسيولوجيا وشاركهم ، مثلما شاركوه ، الولع بالأدب (للراحل رواية خطاطيف باب منصور) . التقينا غير ما مرة ، قبل أن نتصافح ، على صفحات مجلة أبحاث للعلوم الاجتماعية ومجلة بصمات وعلى صفحات الجرائد الوطنية (الاتحاد الاشتراكي وأنوال . . .) وبعدها جمعتنا أسئلة اليسار السياسية والثقافية ، وكنا ننزوي في الغالب إلى الركن لنسرق بعضا من مشترك الأسئلة التي يفترض بنا كباحثين زرعها في الجسم الثقافي والسياسي لليسار . (علاش ما تجيش عندنا لمكناس للكلية نتوانسو ونخدمو مجموعين . . هي الجملة التي كان يرددها لي كلما جمعتنا مناسبة من المناسبات وكنت أرى فيها نبله الهادئ وسموه الرقيق .

البقاء للأثر هي الجملة التي ودعت بها الراحل عبد الكبير الخطيبي وهي نفس الجملة التي ودعت وأودع بها عبد السلام . سؤال التحديث في المجتمع المغربي هو بؤرة مساره الاكاديمي والذي اشتغل عليه في أطروحة الدكتوراه مع الدكتور محمد سبيلا ، والذي بالمناسبة

يدين له الحقل السوسيولوجي ، وهو الفيلسوف ، بالكثير . أطروحة الباحث الكبرى والموجهة في هذا الباب تتمثل في كون التحديث الاجتماعي هو أس أنماط التحديث السياسي والاقتصادي . وهو منشودها . لا يمكن في رأي عبد السلام حيمر لأي دولة أن تفكر في التحديث السياسي والاقتصادي ، في ظل سيادة علاقات اجتماعية مبنية على روابط القرابة والدم والدين والقبيلة والعشيرة والعرق . بهذا المعنى يكون التحديث متموقعا في أفق الحداثة ومشروطا بمقوماتها . لقد شكلت كتابات المؤرخين والرحالة والمثقفين في القرن التاسع عشر متن البحث ومجال فحص تمثلات وتصورات النخبة المغربية للتحديث خصوصا وأن هؤلاء عاشوا عنف اللقاء المباشر مع الغرب وكانت لهم ردودهم الفكرية وتصوراتهم لكيفيات مجاوزة وضعية العطب والانخراط في سلك التقدم والتحديث .

سيعمم عبد السلام حيمر أطروحته الأكاديمية وذلك عبر نشرمحتوياتها في تاليفات متفرقة ومتكاملة ، من مثل المغرب ، الإسلام والحداثة ، والتحديث في الفكر المغربي المعاصر ، ومسارات التحول السوسيولوجي بالمغرب والإصلاح والموت والحقيقة : دراسة سوسيولوجية في بعض قضايا المغرب المعاصر ، والتدخل في أكثر من مناسبة ، داخل الوطن وخارجه ، في أدب الرحلة وكيفيات رسمه لصورة الآخر .

ولأنه كان ضيفا على أهل الأدب ومؤطرا لهم ، ومدرسا سابقا للفلسفة بالثانوي ، فقد جعل من السوسيولوجيا بيت الضيافة الأكبر للمعرفة الأدبية والفلسفية . في مؤلف سوسيولوجيا الخطاب : من سوسيولوجيا التمثلات إلى سوسيولوجيا الفعل ، جعل من الخطاب منفذا للترحال بالقارئ بين مكونات المعرفة المتعددة (مفهوم الخطاب واللسان واللغة لدى سوسير وفلاديمير بروب والشكلانيين الروس ، والخطاب والثقافة والمجتمع كما فكرهما كلود ليفي ستراوس بأبحاثه اللامعة حول الأسطورة والمعنى والعلم والايديولوجيا ، والخطاب في أشكال انتظامه الداخلي وأنماط إنتاجاته الذاتية للسلط مع ميشيل فوكو ، وكيفيات تمفصل الخطاب مع إرادة المعرفة وأخلاق السادة مع فريدريك نيتشه وارتهان مقاصد الخطاب بشروط الحقل الاجتماعي والرمزي مع بيير بورديو . . .) وتسطيرا على ارتباطه التاريخي بسؤال الفعل والتغيير والتفكيك والتشخيص لكل البؤر المولدة ، كما يقول نيتشه ، للانحطاط وكذا الدعوة للخروج منه . قد ينفر القارئ والمهتم المبتدئ من أبحاث عبد السلام حيمر ، مثلما قد يتأفف الباحث المشبع من كثرة شروحاتها وغزارة معطياتها ، لكنه هو لا يقنط ولا يتأفف ، لكونه من الباحثين القلائل الذين ظلوا مع كل مؤلف جديد وقضية مبحوثة وكأنه ينجز أطروحته الأكاديمية الأولى : تغطية نظرية للمفاهيم ولمساراتها الفكرية وعرض للإعلام المؤسسين وتاريخية

تأسيساتهم الفكرية . وتركيب يصب في النواة الإشكالية للبحث ، ثم بدء من جديد في ما ينتظره الباحث الشاب المتلهف أو الباحث المتعب الراغب في أقصر الطرق .

إنه نفس المسار والنمط الذي نسج به مؤلفه : في سوسيولوجيا الثقافة والمثقفين ، وحاك به بنيات المفاهيم (الثقافة والمثقف من جذرهما اللغوي والمهامي إلى النظريات الكبرى التي طبعت تاريخهما من مثل الماركسية والوجودية السارترية) ومساراتها التاريخية وعلاقاتها بالراهن . درس عبد السلام الحيمر لطلبته وللباحثين من وراء ذلك هو أن المعرفة لا تتولد سوى بما يماثلها (المعرفة) والفعل الاجتماعي والسياسي لا ينظر سوى بفضيلة النظر وبصيرة السؤال والنظرية . إليك وإلى أن نلتقي .

سمية نعمان جسوس . . . بلا حشومة

سمية نعمان جسوس السوسيولوجية الموشحة مؤخرا من طرف الملك بوسام المكافأة الوطنية من درجة قائد (سوسيولوجية من درجة قائد) ولجت السوق السوسيولوجي المغربي بشكل غير مسبوق بفضل كتابها عن الحشمة والذي اقترح له الباحث والمترجم عبد الرحيم حزل بمهارة عنوان : بلا حشومة ، الجنسانية النسائية في المغرب . عرف الكتاب منذ صدوره بالفرنسية 11 طبعة ، وهو رقم قياسي ليس فقط

في مجال السوسيولوجيا ولكن في جميع المجالات إذا ما استثنينا منشورات شميشة الخاصة بالطبخ .

الكتاب في الأصل أطروحة دكتوراه قدمتها سمية نعمان جسوس بباريس الثامنة سنة 1985م . وعلى الرغم من العقود الفاصلة بين إنجاز الاطروحة وصدور الكتاب ، بكل تحولاتها الاجتماعية والقيمية ، فقد عرف هذا الإصدار أعلى درجات الاستهلاك المعرفي .

اعتمد البحث منهجيا على الاشتغال بالاستبيان المدجج بالأسئلة المفتوحة وبعدها عمليات التكميم الاحصائي ، وقد استهدف عينة من النساء مكونة من مائتي امرأة موزعة بالتساوي بين المرأة والفتاة بنسبة 75 في المائة وبنسبة 25 في المائة بين الأرملة والمطلقة . وداخل هذا التوزيع الإحصائي للعينة يحضر توزيع من درجة ثانية بين الأمية والمتعلمة وذات الأصول الحضرية والقروية . وقد شكلت مدينة البيضاء الفضاء المكاني لانتقاء هاته العينة .

توزع الكتاب على ثلاثة فصو ل استقت هندستها من التدرج الحياتي الاجتماعي للمرأة ، فكان الفصل الأول معنونا بما قبل الزواج والثاني بالزواج والثالث بالدم والليلة ، اللذة والألم . وكما يبدو من عنوان الفصل الأول فإن الأمر يتعلق في هذا المقام بوصف حياة الطفولة الانثوية داخل المنزل ووسط الأسرة بكل ما تزخر به هاته الحياة من تراتبية بين الطفل الذكر والأنثى وارتفاع القيود والقواعد

والسنن الخاصة بتقنين تربية الأنثى مقارنة بالذكر . تمتلك الفتاة بكارة يجب الحفاظ عليها بكل ثمن . في فترة مراهقتها تصطدم الفتاة بهاته الحقيقة . ففترةالمراهقة هي فترة متطلبات الجسد وانبلاج رغباته الجنسية والعاطفية وكذا لحظات الحلم بالتقاء الآخر المرغوب فيه صاحب المواصفات المميزة عن باقي الذكور . إنها لحظة التعلق والانشداد والإنجذاب والقصص الغرامية ، لهذا السبب تقول سمية نعمان جسوس بأنه في هاته المرحلة تجرد الأسرة الفتاة من جسدها الخاص وتجعل منه ملكا عموميا للعائلة . خاضعا بالتساوي لمراقبة وتدخل الكل بغض النظر عن السن أو الجنس أو الموقع الاجتماعي داخل الأسرة . في الفصل الثاني يرصد البحث لحظات العبور من وضعية الفتاة إلى وضعية الزوجة ومعها الأم ، بكل ما يرافقها من طقوس تربوية ونفسية واجتماعية ترسخ وتسهل العبور المندمج . كل زواج تشمه ليلة الدخلة كما يسميها المغاربة ، وبخصوص ذلك ستخصص الباحثة فصلا بكامله لهاته الليلة بالدم المهروق فيها وبزواج اللذة والألم داخل فضائها . داخل هذا الفصل ترتفع نسبيا درجة ووتيرة البحث في رفع الحشمة أو لحشومة ، تصور النساء للجماع والحياة الجنسية بين العناء والمتعة والألم والوضع الاجتماعي للعذرية بكل ثقله النفسي والاجتماعي على الفتاة . ثم ليلة الدخلة بكل طقوسها المغربية وأشكال لعبها بالمحرم والرجولة والفحولة وأنماط رفعها

للحدود بين فض البكارة واغتصاب الكيان الوجودي للجسد الأنثوي .
ليلة الدخلة حسب سمية نعمان جسوس ليلة ليس كباقي الليالي . إنها الحيز الزمني الطقوسي الذي تنقلب فيه كل المعادلات المتعلقة بالمحظور الجنسي . انثروبولوجيا انها ليلة رفع العار وبشهادة الجماعة أقاربا وغير أقارب ، وهي إثبات للشرف بشهادة الدم المهروق والمدون على كتاب الثوب الأبيض المعلن في وجه كل المتلاسنين والهمازين والغمازين ، وهي ليلة الهدية الكبرى التي تقدمها الفتاة للوالدين : البكارة . في نفس الليلة يدون الرجل فحولته وحسن اختياره واختيار عائلته . إنها الفحولة التي تتأتى في حالات بنوع من الهدوء الناتج عن خضوع المرأة بكل خوف وتعقل للحظة الافتضاض ، لكنها قد تتأتى بالعنف المتوحش . وتورد الباحثة بهذا الخصوص شهادات من عينتها عن عنف تلك الليلة وألم الإيلاج المفروض .

الخوف من الفضيحة ومن اللامتوقع يبرر شرعية كل أشكال تيسير عملية فض البكارة ومن ثم إعلان الدم المقدس والرافع للدنس والعار في وجه الأعداء والخصوم المفترضين والواقعيين . تعتبر الباحثة وبناء على تلك الشهادات أشكال العنف المتوحش الممارسة ليلة الدخلة اغتصابا علنيا وعموميا يباركه الكل أسرة ومجتمعا . وتنتيجة لذلك لا تتوانى عن نعت ذلك بالجرائم التي تحصل بحجة ومبرر الشرف والعار والرجولة . إنها جرائم يجب أن يعيد المجتمع فيها النظر ويضع

لها حدا .

لم تتوقف الباحثة سمية نعمان جسوس بعد صدور كتابها ونجاحه ، بل ستواصل نبشها في واقع الحشومة وذهنيتها . وبما أن بحثها قد يتعرض للتقادم ، فقد بدأت تعمل على ضخه بدماء جديدة وذلك عبر البحث هاته المرة بالسؤال عن هل ما زالت البكارة من المحرمات بالمغرب؟ وهل يمكن للرجل تزوج امرأة يعرف بأن لها تجارب جنسية سابقة؟ ما هي الوضعية الاجتماعية للعنوسة بالمغرب؟ ما هي علاقة النساء بالإنجاب؟ ماذا تقول النساء عن أناقة الرجال؟ المرأة بين جماع الزوج وجماع العشيق؟ الناقة بصيغة المذكر؟ . . . كلها أبحاث ودراسات أنجزتها الباحثة سمية جسوس وذلك في مسار الرفع ثم الرفع من الحشومة وتذويب ثقلها الاجتماعي والنفسي والرمزي والجسدي على المرأة المغربية .

ذاك هو مسار السوسيولوجية نعمان جسوس وتلك قيمتها المضافة للسوسيولوجيا المغربية . الناظر إلى هذا المسار بعيون أكاديمية صارمة ومشروعة ، سيجد ألف سند لكشف ضعف المنهج وتمثيلية العينة للنساء وتمثيلية البيضاء للمجتمع المغربي وأنماط التحليل غير المسنود بما يكفي سوسيولوجيا وأنثروبولوجيا ورمزيا ، خصوصا وأن الموضوع وتمفصلاته تفرض ذلك . وقد يقدم متغيرات شتى على أن ما يتناوله الكتاب قد تعرض للتقادم ليس بالمدينة ولكن أيضا بقرى عديدة .

مثلما قد يضع الأصبع على ضرورة التمييز بين التمثلات التي تظل حية بشكل أطول من الوقائع . وتغيرات قضايا الجنس في اليومي . . . الخ .

عرفت السينما المغربية (نعمان جسوس حاضرة في هذا المجال وتعرفه) مثلها مثل السوسيولوجيا ، قوتها مع السبعينات وإلى حدود منتصف الثمانينات ، وبعدها ستخبو وستتيه بحثا عن ألق جديد . عزف الناس عن السينما المغربية بنفس عزوف الدولة والطلبة عن السوسيولوجيا ، وكان أن أنتج المخرج عبد الرحمان التازي فيلم للا حبي (الجزء الأول) وغمر الحقل السينمائي بنقاده ومهتميه بأسئلة جديدة عن السينما والجمهور والمصالحة بين السينما المغربية وجمهورها (الفيلم عرف إقبالا غير مسبوق دفع التازي للمغامرة في إنتاج للاحبي رقم 2) وقيمة هذا النوع من السينما الجمالي والتقني والفكري و . . . نجح فيلم للاحبي رغما عن النقاد الاكاديميين في جعل السينما تنهج سياسة القرب ، وهو نفس النجاح الذي حققه بحث بلاحشومة في التدشين للسوسيولوجيا كطب اجتماعي وليس فقط كفيزياء اجتماعية . ومثلما يحتاج الطب الخاص إلى الطب العام فإن مسار سمية نعمان جسوس يثبت لنا بأن السوسيولوجيا هي الأخرى في حاجة إلى طب عام اجتماعي مشروط بنفس البساطة والقوة وذكاء اقتناص الموضوعات والأسئلة التي ميزت وتميز مسار السوسيولوجية سمية نعمان جسوس .

حسن قرنفل . . . سوسيولوجيا النخبة السياسية

حسن قرنفل أستاذ باحث في السوسيولوجيا ونائب عميد الكلية المتعددة الاختصاصات التابعة لجامعة أبى شعيب الدكالي بالجديدة . حاضر على أكثر من مستوى خصوصا في المجال الإعلامي ، زاده في ذلك تخصصه في سوسيولوجيا النخبة ، بشقيها المدني والسياسي . أنجز اطروحته في نفس الموضوع بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس . واستهل من خلالها مساره عبر نشر بكريه ، المجتمع المدني والنخبة السياسية : إقصاء أم تكامل؟ 2000م والنخبة الساسية والسلطة : أسئلة التوافق . 2007م . سينخرط بمؤلفه الأول في الإشكالية الكبرى للمجتمعات العربية والمغربية منها على الخصوص والمتعلقة باسئلة المجتمع المدني : سؤال الهوية والتعريف وسؤال العلاقة مع السلطة ثم سؤال التركيبة أو التشكيلة . لم يساير حسن قرنفل تحديدات المجتمع المدني ، خصوصا منها تلك التي راكمها الشرق العربي ، والتي ترهن هويته بوظائفه (إنه مجموع التنظيمات التي تقدم خدماتها للمواطن بعيدا عن تدخل الدولة ونتيجة لذلك يشمل المجتمع المدني كلا من التنظيمات المدنية العصرية وكذا التنظيمات الأهلية التي تنجز نفس الخدمات كالزوايا والطرق ومؤسسات الوقف . . .) أو بأهدافه (اعتماد الأهداف المعلنة في وثائق التنظيمات المدنية كمعيار لتحديد ممكنات انتمائها أو عدمه للمجتمع المدني) . بعيدا عن التعريف

بالوظائف والخدمات والذي يتغافل عن كون الكثير من التنظيمات التي تقدم هذا النوع من الخدمات لا تناى عن إعادة إنتاج علاقات السلطة داخليا وفي العلاقة مع المواطن ، وكذا عن التعريف بالأهداف المسجلة في الوثائق ، والذي لن يتمكن من رفع اللبس الحاصل بين المعلن والواقعي والمسطر والمنفذ وأهداف الجماعة وأهداف الأشخاص .
بعيدا عن كل ذلك يدمج حسن قرنفل مكونات عدة يقرأ من خلالها التشكيلة والعلاقات والمكونات ضمن منظور المجتمع الشامل . في هذا السياق يقترح تقسيم المجتمع إلى تشكيلة ثلاتية تتكون من السلطة السياسية والمجتمع السياسي (النخبة السياسيةالمؤطرة داخل الاحزاب السياسية) والمجتمع المدني . كل مكون من هاته الكونات ، يقول حسن قرنفل . يقيم علاقات تقارب وتنافر مع المكونات الأخرى . فالسلطة السياسية تشترك مع المجتمع السياسي في كون اهتمامها ينصب أساسا على القضايا السياسية ولكنها تختلف في كونها قادرة على تطبيق آرائها وتصوراتها السياسية ، في حين لا يمتلك المجتمع السياسي هاته المقدرة سوى حينما تسنح له الفرصة ذلك .
كما أن المجتمع السياسي والمدني يلتقيان في كونهما لا يمارسان السلطة ولكن يختلفان في كون الأحزاب السياسية تحصر في غالب الأحيان اهتمامها في القضايا السياسية بينما المجتمع المدني يهتم بقضايا بعيدة عن مجال الفعل السياسي وإن كانت أحيانا تدور حول

رهانات سياسية واضحة . لكل هاته الأسباب يضع حسن قرنفل الأحزاب السياسية خارج دائرة المجتمع المدني . تعمل الأحزاب السياسية على الوصول إلى السلطة ومن ثم احتكارالعنف الشرعي بينما يطمح المجتمع المدني إلى مراقبة العنف البدني الشرعي حتى لا يستعمل استعمالا اعتباطيا أو مصلحيا . يقول حسن قرنفل : لا تدخل الأحزاب السياسية في نطاق المجتمع المدني وإن اعتبرت النقابات إحدى دعائمها وذلك ببساطة لكون النقابات وإن مارست السياسة في كثير من الأحيان في التوجهات السياسية العامة للبلاد وبقيامها باضرابات ذات طابع سياسي فإن الهدف من سلوكها ذاك ليس هو الوصول إلى السلطة السياسية ولكن التأثير عليها ومراقبتها .

بخصوص اهتمامه بالنخبة السياسية وبالضبط بسوسيولوجيا الانتخابات ، يستحضر حسن قرنفل زاوية النظر السوسيولوجية والتي مكنته من الانفلات من رؤية الفاعلين السياسيين ومن معايير التقويم الرسمية . فسوسيولوجيا الانتخابات لا تغلق على فعل الاقتراع في في الدائرة الأخلاقية المعتمدة على معيار الصدقية أو غيابها ، بل تتعامل معها كصيرورة اجتماعية يشارك فيها عدد كبير من الفاعلين الاجتماعيين بما يرافق ذلك من تفاعلات وصراعات وانخراطات وانسحابات وإعلان للمواقف أو المواقف المضادة . وبسبب ذلك تنتبه السوسيولوجيا الانتخابية ليس فقط إلى الفاعلين المشاركين

والمتنافسين بل تعتبر في القراءة الخارجين عن دائرتهم كذلك . يتعلق الأمر اذن بالكشف عن الحقل الانتخابي كحقل رهانات دائرة في مجموعها حول المعنى السياسي للانتخابات وكذا عن آثارها على الحياة السياسية في مجموعها .

بالمغرب تظل الانتخابات ظاهرة سوسيولوجية أكثر منها سياسية . وتظل مهمة السوسيولوجي الأكثر كشفا وبسطا للعبة بكل رهاناتها .

خديجة النعموني . . . محكمة بويا عمر

خديجة النعموني باحثة مغربية في مجال الإيثنولوجيا . اشتغلت على بويا عمر في أطروحتها لنيل دكتوراه الدولة وأصدرتها سنة 1995م في كتاب حمل عنوان : بويا عمر ، الولي وفريسته عن دار النشر ايديف . عرف الكتاب انتشارا واسعا لدرجة نفاذ ه من السوق . لا يحمل الكتاب أطروحة وازنة أو تحليلا مثيرا لحفيظة الباحث والقارئ . بل إن البحث الميداني في موضوع مماثل كان كافيا ليمنح الكتاب حظوته وقوة حضوره في السوق المحلي والدولي . فالبحث الميداني والمعايشة الميدانية لطقوس بويا عمر ليست بالأمر الهين . إنها ما يرفع الحكايات ويقدم عوضها للباحثين والمهتمين عموما صورة علمية وو صفا دقيقا لظاهرة دينية ظقوسية شعبية تخترق المجتمع المغربي بنيويا وتاريخيا وتمثليا .

بويا عمر حسب بحث خديجة النعموني سليل الزاوية الرحالية (ولاد سيدي رحال) التي تنتسب إلى سيدي رحال البودالي دفين زمران القريبة من قلعة السراغنة . وهو أحد متصوفة القرن السادس عشر . يحج إليه الزوار بشكل قوي قبل عيد الأضحى بقليل ، موازاة مع موسم الحج . يشكل سيدي رحال محجا للفقراء أو إنه حج المسكين كما ينعتونه أو الطوفة بلغة شرفائه . تقول خديجة النعموني بأن سيدي رحال البودالي وصل إلى درجة كبيرة من الإجلال والتعظيم من طرف الأولياء والصلحاء الذين عايشوه وعاصروه ، على الرغم من أن العديد من الطقوس التي كانت معروفة في حياته اختفت الآن ولم يعد لها أي مكان وسط العديد من الخرافات التي أضيفت لها . تدوم الطوفة بضريح سيدي رحال أربعة أيام وترفق خلالها بالحضرة والجدبة والأذكار وكذا طقوس العلاج من الأمراض العقلية والجسدية التي يعتبر سيدي رحال متخصصا فيها .

بويا عمر هو أحد أحفاد سيدي رحال ووارث بركته في علاج زواره من الأمراض العقلية والنفسية المعروفة بالمس من طرف الجن والصرع . مع نهاية الستينات ، سيعرف بويا عمر ، حسب الباحثة ، شهرته وسيذيع صيته ليس بالمغرب فقط بل سيصل إلى المشرق . إنه الولي المتخصص في علاج التملك والمس والصرع . يستدعي بويا عمر فريسته ، حسب النعموني ، عبر الحلم . إنه يخترق لاوعي المريض

ويطلب منه زيارته . وبسبب ذلك تضطر أسرة المريض أو المريضة إلى احضاره إلى الضريح والمكوث معه إلى أن تقرر بركة بويا عمر ، هل سيظل ساعتان أم عشر سنين ، وذلك حسب نتيجة الفحص الطقوسي والمترتبة عن نتائج الحوار مع الملك أو الجن الذي يسكن روحه وجسده . يتخذ طقس العلاج تهييئا طقوسيا لدخول آل بيت بويا عمر (الشرفاء المتخصصون وورثوا البركة المعالجة) في حوار مع الملك أو الجن وذلك لأجل إرساء عقد الإقامة السلمية من طرف الجن في جسد المملوك . قد يحصل الأمر في حالة ما قبل الجني العرض ، وحينها يتعافى المريض ، لكن في أغلب الحالات يرفض الملوك هذا المستوى الأول من التفاوض ليتم العبور إلى المستوى الثاني من إرساء العدل والسلم . إنها المرحلة العقابية ، والتي يتم فيها إحضار الجني إلى محكمة بويا عمر غير المرئية والتي تتكون من رئيس (بويا عمر) ولجنة مشكلة من أولياء وصلحاء متعاونين وخدام منفذين (الجن الذي تحت إمرة بويا عمر) . تعاقب المحكمة الجني المتمرد على الولي بويا عمر بالتقييد بالسلاسل من الأيدي والأرجل . ويكون ذلك بالاستسلام الطوعي للمريض الذي يقيم الجني في بدنه . وتتحدد إجراءات الصرع وعنفها أو خفتها حسب ردود فعل الجني (أي المريض) ، مثلما تتحدد مدة حمل السلاسل ومدة الإقامة بالضريح ، حسب نفس المعيار .

ليست الإقامة في الضريح مجانية . إنها تتوزع بين المقطوع من

شجرة كما نقول في لغتنا الدارجة ، والذي يكون آداؤه عبارة عن الخدمة الدائمة للضريح ولزواره ، والبسيطة أسرته (150 إلى 800 درهم) والميسورة أسرته (إلى حدود 1500درهم في الشهر) وتكون الأسر الميسورة في الغالب الأعم من عمالنا المهاجرين بالخارج . مثلما يكون أحد أبنائها قد انغمس إلى نقطة اللارجوع في الإدمان على نوع من أنواع المخدرات . هذا طبعا إلى جانب الفتوح والزيارات الكبرى من ذبائح صغيرة وكبيرة (مستلزمات العلاج) . يتوزع زبائن بويا عمر على فئات ثلاث ، فمنهم المرضى البسطاء فعلا والذين لا ضالة لهم في ظل أوضاع البنيات الصحية المتخصصة في العلاج النفسي والعقلي ، سوى بويا عمر وبركته والإقامة فيه لدرجة قد يصبحون بحكم طول مدة الإقامة ذوو تخصص صغير ووظيفة علاجية محدودة ، والمدمنون على المخدرات بدرجات مرتفعة والذين يتجرعون علاج البركة مرفوقا بقيدهم وسلاسلهم التي تمنع عنهم أي حركة نحو الخارج وتفرض عليهم الابتعاد القسري عن استهلاكها ، وقد يكون علاجهم مرفوقا بالانزياح التدريجي نحو الصلاة والتعبد ، ثم الفارون من العدالة واللذين تكون الإقامة ببويا عمر في رأيهم أرحم ، والاحتماء بضريحه أيسر طريقة للضياع المموه بين وجوه المرضى والزاحفين على أيديهم وأقدامهم ، أو الدائرين حول انفسهم ليلا ونهارا .

لقد شكل كتاب خديجة النعماني زلزالا لشرفاء بويا عمر وفتح

عليهم باب جهنم . فمنذ صدوره اضطر الشرفاء إلى إعادة ترتيب أمورهم مع السلطات المحلية (هي على علم بكل ما حصل ويحصل) وكذا مع الوافدين الأجانب والمغاربة والذين يرغبون مشاهدة ما قرأوه بأعينهم . بل قد يكون الكتاب من أجج الحقوقيين المغاربة للمطالبة بإغلاقه (الأمر افتراض فقط) . يقول أحد الصحفيين االبلجيكيين والذي بعد قراءته للكتاب قرر زيارة بويا عمر ، بأنه بعد صدور الكتاب واطلاع الرحاليين عليه شددوا المراقبة على كل من له علاقة بالصحافة أو ما شابه ذلك ، لدرجة لا يمكنوه معها سوى القيام بزيارة خفيفة للضريح وجهاته ، وتفادي أي احتكاك له بالمرضى أو حضور طقس من طقوس الصرع .

وإلى جانب الأثر العملي الذي حققة العمل العلمي ، فقد انتفضت الجمعيات الحقوقية المغربية منددة بالممارسات العنيفة وغير الإنسانية التي تحدث بضريح بويا عمر ، أشهر أولياء المغرب والمعروف ، يقول البيان دائما ، بتخصصه في علاج المصابين بداء الصرع والاضطرابات النفسية والعقلية الحادة حيث يتم ربطهم بالسلاسل وضربهم وتجويعهم بدعوى طرد الجن من أجسادهم . نتيجة لذلك يطالب البيان السلطات بإغلاق الضريح من أجل وضع حد لهذه الممارسات التي تعتبر اعتداء واضحا على حقوق المواطنين ومساسا خطيرا بحقوق الأشخاص .

لم يسبق لولي أو ضريح ،(مثلا للاعيشة وسيدي شمهروش وسيدي علي بن حمدوش الذين يتقاطعون في التخصص مع بويا عمر) إن إثار ما أثاره ويثيره بويا عمر وضريحه . قد تحصل ضجات صغيرة هنا أو هناك مع شخص مدع للبركة ولقدرتها العلاجية ،لتنتهي بعد سنة أو أقل .لقد واجهت بعض أسر النزلاء ببويا عمر بيان الحقوقيين المغاربة بآخر مضاد مطالبة فيه الإبقاء على هذة المصحة (كما نعتها الرد) في ظل غياب مستشفيات متخصصة في مستطاعهم المادي .

إنه ما يمنح بحث خديجة النعماني قيمته المضافة . فالأمر يتعلق ببحث أكاديمي وفي الآن نفسه ببحث مؤجج للفعل والنقاش العموميين حول الإرث الطقوسي العلاجي المرتبط بحقل الزوايا : هل نغلق الأضرحة؟ أم نستحدث المستشفيات والمراكز والمصحات المتخصصة ومعها إمكانيات الولوج المباشر لخدماتها من طرف البسيط والميسور؟ ألا يتعلق الأمر بموروث تاريخي يجب ترميمه وإسناد حضوره : الضريح معمار تاريخي . طقوسه : موسيقى روحية أو مقدسة ، وذاكرة لكل حركات الجسد (الجذبة) ومدخل لفهم الأسس الثقافية والاجتماعية لأمراض كثيرة وعلى رأسها الأمراض العقلية والنفسية . إنه دور الجامعة والعلوم الاجتماعية والذي لا تأبه له وبه وزارة الصحة ووزارة الثقافة والتعليم والسياحة . . . هل نغلق الضريح أو نبقيه مفتوحا ، ليس ذاك هو السؤال .

عبد الله العروي . . إكليل الصناعة الثقيلة في الفكر المغربي

من مواليد مدينة أزمور سنة 1933م ، تلقى تعليمه الثانوي بثانوية مولاي يوسف بالرباط وتعليمه العالي بجامعة السوربون . حصل على شهادة العلوم السياسية بمعهد الدراسات السياسية بباريس سنة1956م وعلى شهادة الدراسات العليا في التاريخ سنة 1958 م ثم على شهادة التبريز في الإسلاميات سنة 1963م . وفي سنة 1976م سيحصل على دكتوراه الدولة في موضوع الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية : 1830م- 1912م . ورغم كل هذا سترفضه الجامعة المغربية في البداية ، ليلتحق بها مدرسا لعلم التاريخ ، فيما بعد ويقضي بها حياته العلمية . غير العروي المواقع كثيرا لكنه لم يغير المواقف . انخرط في المجال السياسي الحزبي (الاتحاد الشتراكي) مثل جيله ، وغادره نحو مناصب سياسية سامية . رافق الملك الحالي حينما كان أميرا ، وكأنه يجرب إمكانات الدرس الميكيافيلي في المغرب . ورحل إلى بلدان أوروبية كوسيط فاعل أكثر من أجهزة وزارة الخارجية الرسمية ، ليركن أخيرا في محرابه الجامعي والفكري .

سنة 1967م ستكون فارقة في مسار عبد الله العروي . إنها نكبة العرب وصدور كتاب الايديولوجيا العربية المعاصرة في طبعتها الفرنسية وبتقديم لماكسيم رودنسون . إنه مبتدأ الصناعة الفكرية الثقيلة في حقل الفكر العربي عامة . والذي سيليه مؤلف العرب والفكر

التاريخي فأزمة المثقفين العرب . مؤلفات ثلاث سترمي ولأول مرة بشكل عميق بالفكر العربي في مسارات غير متوقعة وجريئة . إعادة قراءة للفكر الغربي ولمفكري النهضة العربية والسلفية المغربية . وقلب لإشكالاتها . من الماركسية الموضوعية إلى الماركسية التاريخانية ومن النبش في الثراث والبحث فيه عما يلائم العصر إلى ضرورة القطع معه من حيث هو أساليب ومناهج للبحث الفكري . ومن التقليد إلى اختيار الحداثة ومن التردد بين الأصيل والمعاصر إلى اختيار الانخراط في منطق العالم الحديث والذي هو منطق أوروبا الغربية من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر . ومن تجزيء اختيار الدولة الحديثة إلى ضرورة اختيارها في كليتها وبكل مستلزماتها العقلانية والديموقراطية والمؤسساتية والفكرية .

سيصدر عبد الله العروي أطروحته حول الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية والتي لا يمكن لأي باحث في السوسيولوجيا أن يتغافلها . وبما أن سوسيولوجيا المجتمع المغربي محكوم عليها أن تكون سوسيولوجيا تاريخية فإن العبور عبر المؤرخ لا يمكن تلافيه . (محمد قبلي في الوسيط وعبد الله العروي في القرن التاسع عشر) . بين المؤرخ المحلل للمعطيات والوقائع والمواقف والمفكر المؤسس والفاحص للمفاهيم (الايديولوجيا ، الحرية ، الدولة ، العقل) والمثقف الفاعل والمتدخل في قضايا الأدب والاجتماع والسياسة والفكر . . . ظل

العروي ولازال صاحب نفس الاختيار الفلسفي (الحداثة بدل التقليد) والنظري (التاريخانية بوصفها : ثبوتا في قوانين التطور التاريخي وو حدة في اتجاهه من الماضي نحو المستقبل وإمكانية لاقتباس ثقافة وفكر الآخر بحكم وحدة الجنس البشري وفعالية المثقف والسياسي في إمكان إنجاز الطفرة واقتصاد الزمن) والمنهجي (العقلانية العلمية المعتمدة على التجربة والاستقراء) والفكري (تعرية عوائق التحديث المجتمعي والسياسي) .

اختيار الحداثة من طرف العروي لا تجزيء فيه ولا تعايش بين ما ينتمي لأسسها الفلسفية والقيمية وما ينتمي إلى ما يغايرها . إنها تشبع بمقولات الفكر الغربي الحديث الأساسية : عقلانية وتقدم ونقد ومسؤولية الإنسان عن نفسه . وتعرية في الآن نفسه لكل ما يعيق إنجازها . تعرية ونقد للأطروحة التي تعتبر أن الحداثة متجاوزة بحكم أن الغرب ذاته قفز إلى ما بعدها . يقول العروي ، المجتمعات العربية لا يمكنها القفز فوق مرحلة الحداثة . إنها قدر لا فكاك منه . وهي تفنيد للظن الذي يحسب أن التطبيق الشكلي والانتقائي للأسس السياسية والقيمية للحداثة كاف للعبور إلى عوالمها . إنه الخطأ الأكبر حسب العروي . فالتحول إلى الحداثة يتطلب حضورها في العمق ، أي على مستوى تفكير المجتمع والدولة . مجتمع يبتعد في تعليمه وقيمه وسلوكاته عن المعتقدات الغيبية والتقليدية ، ويقطع مع منح الأولية

للاسم على الفعل لغة وسلوكا . مجتمع يرفع كل ما يعيق تحرير الفرد من مختلف التبعيات السياسية والاجتماعية والعشائرية والفكرية ، وكل ما يعيق حرياته المدنية والسياسية في الواقع وما يحول بينه وبين التفكير الحر والعقلاني العلمي . ثم دولة حديثة ، لا مجال فيها لتحقيق تحولات جزئية (ديموقراطية ، ليبرالية ، مجتمع مدني . . .) إلا بعد إقامتها وإرسائها كدولة حديثة .

اختيار الحداثة والقطع مع التقليد هو اختيار الطريق الذي ليس من دونه بد : الطريق الذي سارت فيه المجتمعات الإنسانية . سيتعرض هذا الاختيار حسب العروي لمقاومات كثيرة لكن من دونه سنظل نقول كل شيء إلا ما يهم حاضرنا ومستقبلنا .

هوامش :

1- محمد الصغير جنجار ، الرسائل والأطروحات الجامعية المغربية :1956-2007م ، دراسة بيبليوميترية ، مجلة المدرسة المغربية ، عدد 2 ، ص :2009، 13

2- المرجع السابق ، ص :15

3-khatibi A ;bilan de sociologie au maroc, association pour la recherche en sciences humaines . 1967 ,p :5

4-ADAM A,bibliographie critique de sociologie ,d'ethnologie et de geographie humaine du maroc ; mémoire du centre de recherches anthropologique préhistorique et ethnologique , alger , 1972

5- نقصد هنا حصيلة جاك بيرك التي رغم أهميتها لا يحتل فيها المغرب موقعا كبيرا بحكم تقدم كل من تونس ومصر على المغرب في مجال التأسيس السوسيولوجي بشكل كبير ، وكذا حصيلة جورج نيكولا والتي لا تنبني على قراءة للنصوص ، بل على ملاحظات شخصية سجلها المؤلف بخصوص كتابات ميشو بلير وروبير مونتاني وجاك بيرك . انظر :

-BERQUE J ,cent vingt-cinq ans de sociologie maghrébine , annales ESC.XI. 3.1956

-NICOLAS G,la sociologie rurale au maroc pendant les cinquantes dernierres anneés ,http://www.persee.fr

6- MIEGE J L , les missions protéstantes au maroc ; hésperis,pp,153191- ,p :154

7-ibid,p p :157171-

8- MOULIERAS A , le maroc inconnu ;exploration ;exploration du rif et jebala ;2tome ;1895

9- DOUTTE E ;marrakech ,19011903- ;alger ,1905

-mission au maroc ,en tribu,alger ,1914

10- DE FOUCAULT CHA ;la reconnaissance du maroc,paris , challamel ,1988

11- نورالدين الزاهي ، صورة المجتمع المغربي في الخطاب الإيثنوغرافي ، من خلال رحلات أوغست موليراس ،إدمون دوتي ،شارل دو فوكو ، بحث لنيل ديبلوم الدراسات المعمقة ، تحت إشراف الدكتور مكي بنطاهر ، جامعة محمد الخامس ، السنة الدراسية 86-1987م .

12-BURQUE III.E ,la mission scientifique au maroc ,BESM ;n ;1831979; 39- ;p :4143-

13- BELLAIRE M ;la mission scientifique au maroc , cité par khatibi, ibid,p :10

14- ibidem

15- les organes scientifiques du protectorat, http://www. diplomatie. Gouv. Fr/archives-patrimoine , p :13-

16-ibid ,p :4

17- KHATIBI ;ibid ;p :14

18- ROUSSILLON A , sociologie et identité en égypte et au maroc : le travail de deuil de la colonisation ,http://www. Aloufok. Net/spip.php ? article 78 ,p p :1423-15-

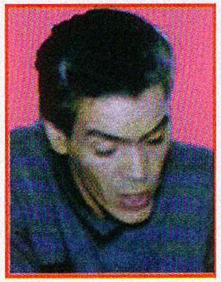
19- محمد الصغير جنجار ، مذكور سابقا ، ص :22-24

20-COLLONA F, production scientifique et position dans le champs intellectuel et politique ; in ,le mal de voir ,cahiers jussieu 2 , 101976, 18-

-BOUDERBALLA N,pour un regard froid sur la colonisation,la percéption de la colonisation dans le champ de la penseé décoloniseé, le cas du maroc ,in ,vatin j c ,connaissance du magreb , sciences sociales et colonisation , paris ,CNRS ,1984

- بول باسكون ، ضرورة إعادة النظر في الإطارالنظري لدراسة الظاهرة الاستعمارية ، المجلة المغربية للقانون والسياسة والاقتصاد ، عدد 5، 1979م

21-CHENNTOUF T, la sociologie au maghreb : cinquante ans après, revue africaine de sociologie , n ;10 ,p : 1820-



نورالدين الزاهي

رصد الحصيلة السوسيولوجية لمغرب اليوم ليست أمرا سهل الإنجاز بالنسبة لمؤسسات علمية، فم القول حينما يتعلق الأمر بباحث مفرد؟؟ يتطلب رصد الحصيلة السوسيولوجية المتوازنة، كما وكيفا، شروطا مؤسساتية علمية، تمكن من الحصول على المعطيات الكمية المنظمة المتعلقة بالبحث العلمي السوسيولوجي، وموارد بشرية متخصصة ومؤهلة لقراءة الإنتاج السوسيولوجي وتقييم هويته وحصيلته.

الثمن: 25 درهم